Ancora Imparo

العصور

العدد ٤ مجلد ١ — شعاع الحكمة يجذبنا إليك — ديسمبر ١٩٢٧

بشار بن برد

ودلالة شعره على نفسيته

— ١ —

الشعراء ابين الناس نفوساً وأجلاهم باطناً . ولهذا ترى انهم اكثر أبناء آدم تعرضاً لنقد الناقدين . على انهم بعد من طينة آدم وحواء ، وليسوا باكثر من كل الناس اسفافاً ، ولا أعلى منهم فى الآداب مكانة . فهم طبقة خاصة تمتاز بموهبة ما . موهبة فنية لا تخرج فى حكمها عن بقية المواهب التى تمتاز بها بقية الطبقات من مجموع الحيوان الناطق . والحقيقة أن نفسية الشعراء نفسية مفضوحة فى شعرهم بينة فى خطرات نفوسهم ، جلية واضحة ، بل تكاد تكون ملموسة ، دون غيرها من نفسيات الناس . ولولا عجز الشاعر عن ضبط هواجس نفسه ، وفقد الارادة على كتمانها والترسل بها شعراً ، لكان أبعد الناس عن صفة الشاعرية . فعجزه هذا سر من أسرار قدرته الشعرية ، وضعف ارادته سبب أول من الاسباب التى تسوقه إلى تصوير مافى نفسه ، ظاناً انه انما يعبر عن حقائق العالم وعن نفسيات غيره من الناس بما مصور من خطرات لاتقوم إلا فى نفسه وحده .

كنت أسير يوما مع صديق أديب على شاطىء النيل ذات أصيل وقد فاض النهر فى آخر شهر آب وانعكست على صفحته النحاسية أشعة الشمس الذهبية فوقف صديقى أمام النهر المتدفق المنساب فى جوف الطبيعة انسياب الامل العريض فى نفس أمضها الفراق ، وقد بهت من عظمة مايرى ، فما لبث أن أخذ كتابا كان معى وكتب على أول صفحة منه .

الله أنت وأنت الله يانيل منى لشخصك تعظيم وتبجيل
يبدو جمالك ملء النفس قاطبة فيأخذ النفس تكبير وتهليل

ولم يك صاحبى من المشتغلين بصناعة النظم ، ولم أعرف عنه أنه شاعر . بل هو ناثر من كبار الناثرين وان كان فى نفسه نزعة إلى الشعر ، فانما هى نزعة تلوح ضئيلة بجانب حب البحث والاختبار . ولعله يقرأ اليوم هذا ، ولعله يذكر هذه المناسبة ، فيستجمع فى مخيلته مرأى النيل ومشهد أمواجه المتلاطمة الآخذ بعضها برقاب بعض ، ولعله يكمل مابدأ منذ عشر من السنين ، فيخرج قصيدة بليغة فى وصف النهر الفائض ، بل فى وصف مافاضت به نفسه من الصور المتخالطة .

وبعد . فهل رأيت فى خطاب ذلك الصديق إلى النيل ، كيف كشف عن نفسه وكيف جعل النيل فى منزلة واحدة مع الله وكيف بدا جمال الطبيعة ملء نفسه ممثلا فى النيل وفى ذلك الظرف الذى انعكست فيه أشعة الشمس عند الاصيل على صفحة النهر النحاسية الجميلة ، فأخذ ذلك الجمال على نفس الصديق أطرافها وملأ جوانبها فلم يترك فى نفسه من مكان خال ليسع أية فكرة أو معتقد أو مذهب أو صورة أخرى ، وأن وحدة الوجود التصوفية لم تترك فى العالم من شىء عند شاعرنا الاديب الا الله والنيل ، ولا شىء غيرهما . ومامن ريبة فى أن هذه الخطرة التى فاضت بها نفس الصديق فى تلك الآونة قد فضحت سرائر نفسه واظهرتها على حقيقتها الكامنة دون مظهرها الخارجى فنمت عن أن تلك النفس لوحوطتها عقائد الوثنية لكانت اثبت فيها من كل ماخلق الفكر من صور الدين فوق هذه الارض

ولو انك نظرت معى فى ملامح صديقى وما ارتسم على وجهه من مظاهر الحب الشديد والعطف مشوبان بشىء من الانقباض والحيرة ، لاعتقدت بان تلك الحيرة وذلك الانقباض لايدلان على شىء دلالتهما على تنازع بين التقاليد الوراثية فى النفس إذ تتناحر جادة فى سبيل أن تملك كل منها أطراف النفس تحت تأثير

ظرف من الظروف . وكأن الطبيعة ماخطت على وجه ذلك الصديق مسحة من الحزن تراها نامة عن حقيقة نفسه بلا شعر حتى وبلا حديث ، على الرغم مما يلوح فى كلامه وحركاته من مظاهر المرح والجذل ، الا لتفضح سر نفسه ، وان أجهد نفسه فى اخفائه . وما ان لاح على وجهه فى تلك اللحظة التى أخذ يخاطب فيها النيل من شىء ، وما ان زاد على صفاته من صفة الانفعال ممسوس بكآبة شديدة ازدادت معها مسحة ذلك الحزن العميق الذى خطته يد القدرة على محياه

على هذا النسق يدل الشعر دلالة صحيحة على حقيقة نفسية الشاعر . فان الشعر هو الصوت الصارخ الخارج من أعماق النفس ، بل ومن أعمق أغوارها ، ليسبك فى اللغة عنواناً حياً على النفسية التى بعثته من قرارة الوجدان الى عالم الخطاب .

ومهما يكن من تأثير روح العصر على الشعر والشعراء ، ومهما يكن من أمر حاجات الحياة وتأثيرها فى الشاعرية اذ تقلبها فى بعض الاحيان الى صناعة للنظم تبدو جلية واضحة فى المديح وغيره من صور الشعر قضاء لحاجات ما تحركت لها الشاعرية ولا فتنت بها النفس ، فان الشاعر لن يفلت من القدر مطلقاً ، ولابد من أن تعثر فى شعره على خطرة أو مقطوعة قصيرة أو مناجاة يرسل بها إلى الله أو إلى الطبيعة أو إلى شىء أو معنى مبهم قد يشعر به ولا يستطيع التعبير عنه ، ماتنم فى الدنيا عن شىء الا عن دخيلة فطرته وعن نواتها التى التأمت من حولها كل عناصر نفسه .

ان ادل صور الشعر على نفسية الشاعر انما هو شعر الانفعال . الشعر الذى يبعثه انفعال خالص فى النفس غير مشوب بشىء من حزم الارادة ولا روادع العقل ، ولا تكلف من ناحية الصناعة . فاذا أردت أن تبحث فى مجموعة ماأخرج شاعر من قصيد لتستدل بشىء منه على نفسيته ، فانما يجب عليك أن لا تتعمد التغلغل وراء معانيه الخفية ولا أن تغوص وراء تشبيهاته ، بل يتعين عليك أن تبحث فى أى المواضع من شعره بعث انفعاله وتجرد عن ارادته فى ضبط معانيه وعرى عن عقال عقله ليسير وراء ما يريد أن يخرج من معنى معقود على غرض يريد الوصول اليه . وانى لأتخيل أن هذه القاعدة لاتخطئ اذا أمكن تطبيقها بما يقتضى لذلك من الحيطة والحذر وطول الأناة والصبر على البحث وقوة الملاحظة .

ولو أنك ثابرت على اتباع هذه القاعدة ورضت نفسك على التزامها لبان لك أن تطبيقها على الشعر الجاهلى أيسر منه فى الشعر المخضرم ، وانها أبعد ماتكون يسراً فى التطبيق على الشعر من بعد ذلك . فان الخلق الجاهلى ماكان يعرف الا الانفعال لشىء يملك جوانب النفس حتى فى أخطر ناحية من نواحى الشعرالعربى ناحية المديح والهجاء . أما هذه الناحية فقد فسدت فى عصور المدنية كل فساد حتى شوهت جمال الشعر ، اللهم الا من ناحية الصناعة والانسجام . فان المديح والهجاء من قبل ماكان ليفيض باحدهما خيال شاعر من الشعراء الا تحت تأثير انفعال يدل دلالة واضحة ، وقدتكون غيرذلك ، لاعلى نفسية الشاعر وحده ، بل على بضع صفات حقيقية يتصف بها الممدوح أوالمهجو .

فلما أن ضغطت حاجات المدنية والترف على النفسية الشعرية وحوطتهاعوامل الجشع الاجتماعى بمؤثراتها خرجت بمواضع المدح والهجاء عن أن تكون شعراً يدل على واقع ، الى صناعة يستدربها الشاعر أكف الاغنياء والامراء بالحق والباطل. ففسدت صورة من صور الشعر كانت من الممكن أن تظل نبعاً فياضاً بالدرس لمن يريدون أن يكتبوا فى أشخاص الذين اشتهروا من العرب فى عصور مدنيتهم . وأنت بعد تقلب ما كتب الشعراء فى أمير أو وزير ، ثم ترجع الى المدونات التاريخية ، فلا تقع الا على صورة تختلف تمام الاختلاف عن الصورة التى يطبعها فى مخيلتك الشعر المقول فيه . ثم انك لا تجد المدونات الا على صورة من النقص لاتزودك بسنادة قويمة يمكن الاعتماد عليها فى بحث تاريخى أو تحليل نفسى . فان سطوة أهل الجاه قد حالت دون حرية الاقلام فى تقرير الحقائق حتى انك لتجد أن مدونات التاريخ قلما تتكلم فى أشخاص الزمان الذى كتبت فيه الا محشوة بالمديح شأن الشعر ، ثم تجدها تتكلم فى أشخاص زمان سابق بشىء من الاستقلال فى الرأى ، ولكن الشك يساورك فيها كل مساورة ، لانها على الاقل صورة منقولة للكاتب أو للمدون على السنة من تلقفها من الرواة ، وقدتكون صحيحة ، ولكن من المحتمل أن تكون خطأ وافتراء .

* * *

كل هذه الاسباب يجب أن تتجمع فى ذهن الكاتب اذا أراد ان يكتب فى بشار بن برد ، مستعيناً بدرس شعره على معرفة نفسيته وتحليلها . وأنت تعرف

بشاراً وتعرف عصره . عصر قريب من بدء انقلاب تاريخى عظيم ، لا فى تاريخ الاسلام والمدنيه الاسلامية وحدها ، بل فى تاريخ الدنيا . استتب الامر للعباسيين فى بغداد وبدأت موارد الامبراطوية الاسلامية العظمى تزود العاصمة الجديدة بكل ما تستطيع من صنوف الترف والانغماس فى شهوات ان لم تبلغ فى عصر بشار مبلغها فى عصر الرشيد أو المأمون مثلا ، فانها صورة تكفى اذا قستها باخبث صور الفساد الرومانى لان تولد فى ذهنك فكرة أن المدنيه الاسلامية اينما حلت وكانت قد حملت معها بزور انحلالها ، وقد نبتت تلك البزور فى كثير من أطوار تلك المدنيه ولكنها ظلت دائماً كامنة دفينة فى أعماقها ، منقولة عن البادية الى الحاضرة مرتكزة على أساس من الصفات النفسية ، ما كانت البيداء الا سداً منيعاً حال دون ظهورها بذلك المظهر الذى تجلى فى بغداد فى أوائل العصر العباسى وأواسطه ، وانتهى بتغلب شعب جديد كانت السهول مباءته والجبال والاحراش مثابته .

أنك لا تستطيع أن تتغلغل فى حياة بغداد الاجتماعية الا من طريق كتب الأدب . وما ترويه تلك الكتب مشعب الاطراف كثير الوجوه متعدد القصص . على أنه فى مجموعه لا يحوط نفسك بشئ ولا يولد فى ذهنك من فكرة الا فكرة الاكباب على الملذات والمبالغة فيها والافتنان فى حيازتها بكل طريق مستطاع سواء أرضيت به شريعة الآداب أم نفرت منه . ولا أريد أن أذهب بالقارئ بعيداً ولا أن أطوف به فى مجاهل كتب الأدب الكثيرة ، فان كتاب ألف ليلة وليلة ماهو الا صورة تكاد تكون صحيحة فى فلسفة الحسيات التى تملكت فكرة الناس وأذلت أعناقهم فى بغداد فى أزهر أيامها بالمدنيه الاسلامية . بل يكفى ان تطوف معى طوفة بسوق النخاسين فى بغداد لتطبع فى ذهنك صورة صحيحة من مدنية ذلك العصر ، هى أشبه الاشياء بتلك الصورة التى تصورها لنا صفحات التاريخ عن آخر عهد مر بمدينة بومبى قبل نكبتها .

قال كاتب عربى

« ولقد شهدت سوق الجوارى فى مدينة بغداد ، وقد أقيمت فى الموضع المعروف بسوق النخاسين فرأيت فيهن الحبشيات والروميات والجرجيات والشركسيات والعربيات من مولدات المدينه والطائف واليمامة ومصر ذوات الألسنة العذبة والجواب الحاضر . وكان بينهن من الغانيات اللاتى يعرفن بما

عليهن من اللباس الفاخر الذى لاغاية بعده ، بما يتخذن من العصائب التى ينظمنها بالدر والجوهر ويكتبن عليها بصفائح الذهب كلاماً يحلو لأهل الطرب ، فرأيت على بعض العصائب ـ « وضع الخد للهوى عز » ورأيت على بعضها ـ « من كان لنا كنا له » ـ ورأيت فى صدر جارية هلالا مكتوباً عليه

أفلت من حور الجنان وخلقت فتنة من يرانى

وقرأت فى عصابة أخرى

الا بالله قولوا يا رجال أشمس فى العصابة أم هلال .

« وبعض الغوانى المترفات كن يتخلصن سراً من حيث لايردن المقام ثم يأتين السوق متواريات عن عيون الرقباء الى ان يقع سوقهن على أحد من الناس ومواليهن غير عالمين ، فيتصرف النخاسون فى بيعهن مثل تصرف التجار ببضائعهم » .

هذه الصورة على ضؤولتها كبيرة الادلة على روح ذلك العصر تلك الروح التى ما كانت تقود خطوات المدنيه القائمة فيها الا الى الانحلال والفساد . وهل هى الا صورة روما فى آخر عصور مدنيتها حيث كان الرجال يعدون السنين بعدد النساء اللائى اتخذنهم عشيقات وحيث كان الابناء لاينسبون الى آبائهم ، بل الى أمهاتهم ، فيقال بن فلانة لا ابن فلان !!!

ذلك الجو الذى حوط بشار بن برد ، ما كان ليخرج لنا من الشعر الا ماوصل الينا عن بشار ، وما كان ليزودنا بشئ من مواد البحث الا بكل مايمكن أن يستدل به على عناصر الفساد الذى أخذ يدب فى جسم الدولة العباسية فى بغداد منذ أول نشأتها الا قليلا .

وهل تجد فى ذلك الجو المعتم الا مفاسد وشهوات ضالة مضلة ، ما كانت لتؤثر فى شئ بقدر تأثيرها فى الروابط الاجتماعية التى تكون الاسرة ، وهى سنادة البناء الاجتماعى ، وأول ركيزة فى قيام المدنيات ؟

ولعمرك لو أردت أن تبحث فى نظام الاسرة اذ ذاك وتمشيت من ثم الى البحث فى اخلاق المرأة التى تريد وما أرادت فى كل الازمان المتمدنية الا أن تستقل برجل تهبه من عواطفها بقدر مايهبها من عواطفه ، ويخصها من حبه بقدر ماتخصه من حبها ، ألا ترى معى بحق أن نظام الاسرة كان بائراً وأن رابطة

المجتمع القائم عليها كانت مفصومة وأن الحياة اذ ذاك كانت عبارة عن نسيج مفكك الاوصال لم ترأب صدوعه آداب للأسرة توورثت فى ناحية من نواحى المدنية ؟ وهل يمكن أن ترأب صدوع الاجتماع فى نظام مدنى لم يقم فيه للمرأة من وزن ، اللهم الا بمقدار ماترضى فى الرجل من شهوات هى أحط ما أخرجت الطبيعة من فاسد عناصرها فى الحياة ؟ وهل من المستطاع أن تتكون أسرة متلائمة العواطف متناسقة الآداب وقد تحكمت فيها الاماء اللواتى كن لا يعشن الا متطفلات على شهوات الرجال متضاربة مراميهن ، متنافرة مصالحهن ، متناثرة حول الشهوة رغباتهن ، متضائلة بجانب الرذيلة فضائلهن ، مركزة حول البغض والحسد أفكارهن ، قريبات من الاثم ، بعيدات عن التقوى ، هائمات جامحات شاردات ، ما من حاجة لهن فى الحياة ، وما من مطمع فى الدنيا ، سوى ارضاء أفسد ما انطوت عليه نفس الرجل من الصفات ؟ وأنت بعد . هل تجد للرجل من مجال ينمى من صفات الرجولة فيه الا معهده المنزلى ؟ فكيف به وهو لا يرى الا صورة الخنوثة قائمة من حوله تزكى فيه مواضع الفساد ، مقصية به عن مواضع العفة والشرف ، نازلة به الى الحضيض ، هابطة به الى الدنى والمفاسد ، سالبة منه شرة الرجولة ، قاتلة فيه صفات الذكورة الصحيحة ؟

هذه الصورة تتحيز فى ذهنى وتظل شديدة الاثر فيه كلما فكرت فى عصر بشار بن برد وكلما فكرت فى العصر العباسى من ناحيته الاخلاقية . على انك ان فكرت فى العصر العباسى من حيث الأدب لوجدت فيه مناقص وكمالات شأن كل الاعمال الانسانية . على أن أنقص ما أراه فيه نزعة الادباء الى المنابذة بالالقاب والانساب ، وجنوحهم الا المفاضلة بين الشعراء أو الكتاب . وهى ظاهرة أقل مافيها أنها تدل على انصراف عن الأدب الحقيقى على الوجه الاكمل الى أشياء لا تضر ان تركت ولا تفيد اذا ذكرت ، بل أنها فوق ذلك من مواضع الضعف فى فنون الأدب وفى الصناعات الأدبية .

قال الرواة إن أحسن الناس ابتداء فى الجاهلية امرؤ القيس حيث يقول « الا عم صباحا أيها الطلل البالى » . وحيث يقول « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » . وفى الاسلام القطامى حيث يقول « إنا محيوك فاسلم أيها الطلل » . ومن المسلمين بشار حيث يقول

أبى طلل بالجذع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيما
وبالفرع آثار بقين وباللوى ملاهى لا يعرفن الا توهما

وما اعتقد أن بشاراً والقطامى الا من الناسجين على وتيرة امرىء القيس . فكلاهما فى حسن ابتدائه خاطب الطلول البوالى . وانك لتجد فى النواح على الطلول رنة حزن فى النفس عميقة وهى على ما تبعث من الحزن فى النفس لاتولد فيها الا الذكريات ، ذكريات المنازل الخاوية والصور الذهنية الحية بما يتخللها من الانفعالات الشديدة الاثر . والدليل على أن بشاراً والقطامى قد نسجا على منوال امرىء القيس أن امتع بيت قاله بشار قل ظل زماناً يجهد نفسه لينظمه على نسق بيت امرىء القيس المشهور

كأن قلوب الطير رطباً ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالى

فقال بشار

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

على أن هـذا البيت لا يخلو من نقد فانه أقل من سيوفه ، لأن أسياف جمع قلة . ويقولون ان بشاراً أغزل الشعراء حيث يقول

أنا والله اشتهى سحر عينيـ ـك وأخشى مصارع العشاق

ولو قالوا بانه اجبن المحبين وأحرص العشاق على حياته لكان ذلك به أولى . على انى لا أجد فى مباحث الأدب من مبحث هو أعق لفضيلة الاقساط فى القول من المفاضلة بين الشعراء أو الموازنة بينهم أو الوساطة فيما اختلفوا فيه من مذاهب الشعر . فانت تجد أن لكل شاعر من فحول الشعراء صفة قلما يدركه فيها شاعر غيره ، وأنه نسيج من الشاعرية وحده غير قائم على أساس مستمد من تقليد أو تشبه بغيره . لان الشاعرية سليقة موروثة فى النفس ولن تماثل الشاعريات الا اذا تماثلت الصفات الموروثة . وهذا أمر بعيد مناله متعذر وقوعه

وانا لا تحوطنا شبهة مطلقاً فى أن شاعرنا الذى نتكلم فيه اليوم نسيج من الشاعرية وحده ، وانه فى شاعريته مزيج من الصفات الموروثة لم تتهيأ لشاعر غيره كما أن بقية فحول الشعراء لكل منهم صفات لايشاركهم فيها بشار ولا غيره من أهل هذا الفن المطبوعين عليه .

على أنه تعترضنا فى بحث بشار من ناحية الشاعرية ومن ناحية دلالة شعره

على نفسيته موانع كثيرة . أولها : اننا لانستطيع أن ندرس حقيقة العصر الذى عاش فيه من ناحية النظام الاجتماعى دراسة تولد فى أذهاننا صورة غير الصورة التى وصفناها من قبل ، وانها لصورة آثارها كثيرة الذيوع فيما وصل الينا من شعر بشار . وثانيها : أنه لم يصل الينا من شعر بشار الا نتفاً أو مقطوعات قصيرة ولم يصل الينا من شعره قصيدة كاملة . على انى أعتقد أن ماوصل الينا من شعره كاف لدرس قوة شاعريته والاستدلال بها عن حقيقة نفسه .

ولن أشك بجانب هذا فى أن شعر بشار لو وصل الينا كاملا ، كما وصل الينا شعر المتنبى أو أبى العلاء المعرى أو غيرهما من الشعراء ، لكان لنا منه مورد كبير فى دراسة عصره والاستدلال به على حالات قامت فى ذلك العصر . فان ماوصل الينا من آثار بشار الادبية ، على قلتها ، تدلنا دلالة واضحة على أن ذلك الشاعر الكبير كان قد اندمج فى جوه اندماجا تاما وامتزج دمه بعناصر المدنية التى قامت من حوله . فهو صورة من ذلك العصر . صورة أقل مافيها من الدلالة على الروح التى ذاعت فيه انها خارجة من نفس شاعر ملء نفسه الشاعرية ، صورة مفضوحة فى الشعر غير موشاة بشىء من صناعة الكلام ولا مغشاة بجمال النثر ولا ببياناته ولا خطابياته ، ولا محلاة بالصناعات البديعية التى لجأ اليها كتاب ذلك العصر .

وبعد فانت لاتبعد عن روح العصر العباسى بقدر ماتلجأ إلى الصناعات النثرية التى ذاعت فيه . فانها لاتعطيك من صور ذلك العصر الاصورة مكذوبة قد تستدل منها على شىء من رقى اللغة أو انحطاطها . وقد تستدل منها على شىء من جمال الاساليب أو فسادها . ولكنك لاتلجأ اليها للاستدلال بها على روح ذلك العصر الحقيقية ، الاوتكون قد لجأت إلى أوهن ناحية من نواحى التنقيب فى عصر هو أبعد العصور عن تزويدك بمراجع يصح أن تتخذ دعامة للبحث العلمى الادبى بحثاً يرضى الحق والضمير

اسماعيل مظهر

رينيه ديكارت

هادم قديم ، ومؤسس جديد ، أما القديم فهو علوم معاصريه وطريقة التفكير عندهم كما ورثوها عن الاقدمين من علماء القرون الوسطى وفلاسفة اليونان ، وبخاصة ارسطو ومن تابعه من فلاسفة الاديان ، ممن مزجوا الفلسفة بالدين مزجاً أفسد الاثنين معاً ، وجعل كلا منهما عقيما غير منتج . وأما الجديد فهو العلم الحديث وطرق الوصول إلى البحث عن الحقائق العلمية . والرياضة الحديثة بجميع فروعها من هندسة وميكانيكا وجبر وما الى ذلك ، ثم الفلسفة الحديثة بماديتها وفكريتها بل وروحانيتها مدينة له . فهو بحق مؤسس العلوم الحديثة والممهد لها وأبو الفلسفة الحديثة . وكل من خلفه من الفلاسفة والعلماء والرياضيون تقبلوا آثاره ومشوا فى ضوئه .

نعم . وقد خلفت فلسفته بحق فلسفة المعلم الأول فى جامعات أوروبا وعلى الخصوص فى هولندا وجنوب المانيا منذ القرن السابع عشر وأسقطت ارسطو من ذلك الجبروت الذى ظل به متحكما فى عقول البشر من وثنيين ويهود ومسيحيين ومسلمين أكثر من ألفى عام : فالعلم الحديث له مدين . والفلسفة الحديثة وليدة تفكيره . والرياضة بجميع فروعها كانت تكون مستحيلة اليوم لولاه . وقد كان لنظرياته أثر عظيم فى القانون وعلم التاريخ . بل ان الادب والنقد الأدبى أسير فضله . وان شئت البرهان فاقرأ مؤلفات بعض ناشرى آرائه ومطبقيها فى النقد الأدبى وفن القصص من أمثال بيرو Perraul وفونتينل Fontenel وغيرهما من الاعلام .

وهو أحد أفراد الدهر الذين جاهدوا فى سبيل توطيد الحرية الفكرية فى عقول المفكرين وجعلها الاساس الذى تقوم عليه كل ثقافة وكل تقدم وكل تفكير فى جميع فروع المعارف البشرية . وهو أكبر ثائر عرفه التاريخ حطم الى الأبد تحكم فلاسفة اليونان وكل سلطة غير مشروعة فى العقول كما حطم قبله لوثر تحكم رجال الدين فى الضمائر والقلوب . فهو علم من أعلام حرية الرأى وإليه يرجع الكثير مما نتمتع به نحن اليوم من حرية فى الرأى وتقدم فى العلوم . وهو جدير اذاً بأن

نتعرف نظرياته وأن نلم بشيء من حياته ان لم يكن للاستفادة والتثقيف فلا أقل من أداء واجب الاحترام والشكر لهذا الحكيم .

ولد ديكارت فى ٣١ مارس سنة ١٥٩٦ فى لاهاى بتورين ليس بعيداً من جواتيه بفرنسا وأرسل فى سنته الثامنة الى مدرسة الجزويت الحديثة التأسيس فى لافليش فى مقاطعة جين. ومكث بها الى سن السادسة عشرة حيث ظهرت فيه آثار نجابة فائقة وعلى الخصوص فى الرياضيات . وقد تعرف فى هذه المدرسة بصديقه الحميم فرسن الذى ظل موالياً له كل حياته والذى صار فيما بعد راهباً ورئيس دير فى باريس ولعب دوراً مهما فى ترويج فلسفة صديقه وكسر حدة معارضيه وشانئيه من العامة ورجال الدين جاعلا صومعته مركزاً للبحث فى الفلسفة والعلم واقفاً حياته — الى أن مات سنة ١٦٤٨ — على تقليم أظفار المتعصبين وكل متزمت فى الدين

لم ترق لديكارت خدمة الجيش التى التحق بها فى هولاندا سنة ١٦١٩ ثم بافاريا على الدانوب . بل انه فضل الاعتزال وتكريس حياته للسياحة والتفكير والعلم . فانقطع عن الخدمة سنة ١٦٢١ . ثم هام على وجهه متنقلا من بلد الى بلد الى أن استقر أخيراً سنة ١٦٢٨ فى هولاندا حيث أقام الى سنة ١٦٤٨ وتعرف إلى أميرة بالاتينت فى لاهاى وأهدى لها كتابه فى أصول الفلسفة . ثم أنه ذهب سنة ١٦٤٩ إلى استوكهولم عاصمة السويد بالحاح من الملكة كريستين حيث مات فى فبراير سنة ١٦٥٠ مبكياً عليه من جميع مفكرى جيله .

كان عصر ديكارت غنياً برجال التفكير فى جميع فروع العلم والفلسفة . وقد شاء القدر أن يكون غنياً أيضاً بانصار الجمود وأعلام الرجعية . ولا عجب فقد كان عصره عصر تطور كعصرنا وانتقال من قرون الجهل والعمى . من ظلمة القرون الوسطى إلى نور الحياة وعهد الاصلاح وحركة لوثر . على أنه لم يمض قليل حتى طبعه هو ومعاصروه من أمثال طوريتشيلى وغليليو واللورد بيكون وهارفى بطابع تفكيرهم، ثم انه استقل بمذهب خاص فى كل فروع العلم والفلسفة اذ ذاك حتى أصبح يطلق على عصره بحق عصر ديكارت .

وقد أكبر أهل الفضل قدره فى حياته . فكانت منازل العظماء وصالونات الأميرات مباءة لكل باحث فى فلسفة ديكارت وكان ذلك بالرغم من هياج رجال الدين من الكاثوليك والكلفينيين بل والبروتستانت أيضاً الذين رأوا فى

الجيل حرية التفكير وطريقة ديكارت الجديدة خطراً على تراث آبائهم وأجدادهم .

على أن روح العصر تغلبت على الموانع فانتصر ديكارت وأنصار ديكارت وطبع عصره بطابعه وانكمش معارضوه فى زوايا الصوامع والكنائس يتلون أورادهم ويكفرون مخالفيهم . وقد كان انتصاره بحيث قام من بعده من أتموا فلسفته من أمثال بسكال ومالبرانش واسبينوزا (ممن سنتكلم عنهم واحداً واحداً) بل أن بعض المنصفين من رجال الدين أنفسهم ، وما أقل عديدهم ، كانوا من أشد أنصاره فقد سفهوا آراء المخالفين الجامدين وقالوا ان من أشد السخف والحماقة أن يكون الدين آلة للقضاء على حرية العلم والتفكير .

ابتدأ ديكارت حياته الفكرية كما ابتدأها ابن سينا وابن رشد وغيرهما من فلاسفة الاسلام لكن مع هذا الفرق : وهو ان فلاسفة الاسلام كانوا يراجعون ما يتعلمونه ويلخصونه مراراً دون ان يظهروا نقص علم وفلسفة ارسطو وعقم منطقه وجدب طرقه ، وضرره بدينهم وعلومهم ، وبعقول الذين يتعلمونها من متكلمين وفلاسفة وفقهاء وأدباء . بل أنهم روجوها ترويجاً ملأ الارض والسماء ورددت القرون رجع صداه .

وانى اعتقد كل الاعتقاد أن فلاسفة الاسلام وعلى الأخص ابن سينا فى الشرق وابن رشد فى الغرب أضروا بالثقافة الاسلامية والشرقية كل الضرر بالترويج للقدماء والتعبد لهم . ولا يفوتنى هنا أن أنبه على أن كل فلاسفة الاسلام لم يعرفوا فلسفة القدماء على حقيقتها . وان أعجب ثمن الذين يروجون اليوم لهم باسم التحقيق العلمى كانه ليس فى الفلسفة الحديثة مايغنينا عن أرسطو وكل فلسفته الآن . أما تلك الطنطنة والشنشنة الفارغة حول فلاسفة الاسلام فسيكون لنا شأن مع مروجيها السطحيين .

أما ديكارت فسرعان ما بدأ يراجع ماتعلم حتى بدى له الخلط والفساد وبانت له الفوضى الفكرية . عندئذ ساءل نفسه : أيحق لمثل هذا المعلم ان يظل متحكماً فى عقول الناس ماكرت القرون وتعاقبت الازمان ، ذلك التحكم الذى لامبرر له ! وأليس من العدل ان تتحرر العقول من قيود تحكمه وتحكم الماضين فتنعم بالتحليق فى جو الحرية اللا محدودة ؟ بلى والله وما أشد حاجة الناس دائماً الى ذلك النعيم!

بعد البحث وجد ديكارت ان التناقض والارتباك والاخطاء فيما تعلم من

علوم عصره من أدب ودين وطبيعة وكيمياء وغير ذلك انما يرجع الى ثلاثة أشياء : أولا تباين الناس فى آرائهم ، ثم تناقضهم فى أحكامهم ، وأخيراً اعتمادهم على الحواس فى ادراك الحقائق الخارجية اعتماداً كلياً . على ان كل المعارف التى تأتينا عن هذه الطرق الثلاث لا يمكن ان تكون بحق معارف يقينية أكيدة . ذلك لان الشك يتطرق اليها جميعاً فيهدم عنصر اليقين فيها . وما الحواس وهى الاصل فى الادراكات الذهنية الا وسائط بينى وبين العالم الخارجى ولا يعطينى كل احساس منها الا حقائق مفردة واحدة فواحدة . فانا لا أسمع الا نغمة واحدة ولا أشعر الا باحساس واحد وحقيقة واحدة . وأما التأليف بين هذه الحقائق المفردة الخارجية وايصالها بعضها ببعض فذلك عمل فكرى داخلى مستقل عن الاحساس الخارجى ويرجع الى صميم نفسى وجوهر وعيى . فانا الذى أخلق هذا الاتصال ، وأنا الذى أفسر كل ماتقدم لى حواسى باعتبار أنه موجود وواقع . فاذا أنا منفصل عن حواسى ، منفصل عن جسمى ، منقطع عن العالم بالمرة . جوهر قائم مستقل بنفسه .

بيد أنى أعلم ان حواسى تخدعنى . فكم من المرئيات تظهر لى على غير حقيقتها ، وكم من المسموعات والمذوقات والمشمومات والملموسات تخالف فى الواقع والحقيقة ما أحسه منها ، مما يجعلنى أشك بحق فى العالم الحسى الذى تقدمه الى حواسى طالبة منى اليقين بوجوده ! ولماذا لا أشك فى العالم الخارجى ووجوده ؟ أليست نفس الحواس التى تتطلب منى اليقين بوجود عالم خارجى عنى ، هى بعينها التى تهيئ لى فى الرؤى والاحلام عالماً شبيهاً بذلك العالم الخارجى ؟ فما الذى يضمن لى اداً ان لا يكون ذلك الوجود الخارجى المادى أو المادة على وجه العموم ، هى أيضاً وهم من الاوهام وحلم من الاحلام وخدعة من خدع الحواس ؟

كان ذلك على نهر الدانوب وديكارت فى عزلة المعسكر وسنه اذ ذاك لم يتجاوز الثالثة والعشرين . وهو يقول عن تلك الساعة الرهيبة الممتعة أنها أهنأ أيام حياته وأسعدها . ذلك أنه وجد فى جحيم التشكيك هذا طريقاً الى جنة اليقين . فلم يقف كما وقف سوفسطائيو اليونان ومن اتخذ الشك ديدناً وصناعة له فى منتصف الطريق ، لا الى هنا ولا الى هنا ، ولكنه تابع السير ونهج لنفسه سبيلا أصبحت بعده معبدة ممهدة ومطروقة سهلة . فابتدأ أولا باطراح كل ما تعلمه

ونسيان كل ما تلقن من الكتب والاساتذة والمدارس ورجال الدين واستقبل الحياة عزلا من كل تلك الاسلحة الكهام يريدان ان يتعرف كنهها ومركزه فيها

فالوجود الخارجى يمكن الشك فيه والحواس يشك فى وجودها نفسها ، ووجود جسم الانسان لايسلم من هذا الشك . والكتب والآراء والعلوم والتاريخ بل والدين نفسه يمكن الشك فى صحتها جميعاً . فما الذى يبقى لى اذاً بعد كل هذا الشك فى كل شىء ؟ وأين اليقين اذاً ؟

انظر كيف خرج ديكارت من هذا المأزق الحرج : يوجد حقيقة راهنة واضحة لايمكنى التخلص منها بحال : وهى « انى اشك » وبعبارة أخرى انى لا أشك فى انى أشك . والتشكيك هو نوع من التفكير فاذا ترجمت عبارة « انى اشك » الى عبارة « انى افكر » فيكون مركزى اذا انه يستحيل أن يطرق الى الشك فى « انى افكر » .

فالشك اذاً فيه عنصر من ذلك اليقين القاسر الملزم . واذا « شككت أو فكرت » فاذا أنا موجود **Cogito Ergo Sum**

Je pense donc je suis يرى ديكارت أن ذلك الانتقال السريع من « انى افكر » الى اليقين بالوجود ، وانه موجود هو انتقال مباشر من غير واسطة ومعرفتى له هى معرفة الهامية بدهيه لم أصل اليها بطريق القياس المنطقى ونحن نعرف من المنطق الاستنتاجى الذى ورثناه عن ارسطو ومتابعيه والذى لايزال يدرس فى المعاهد الدينية هنا دون المنطق الاستقرائى الحديث الديكارتى أن القياس باشكاله الاربعة يستلزم مقدمتين أو قضيتين ونتيجة . وأن النتيجة موجودة فى المقدمة الكبرى التى تشتمل عليها شمولا وتحتوى عليها احتواء .

وأن كل معارفنا ومعارف القدماء توصلنا اليها عن طريق القياس . وهانحن هنا أمام حقيقة رائعة ، حقيقة الوصول الى نتيجة فى غاية الاهمية دون الحاجة الى قياس أرسطو . وذلك ان الوجود هو عين التفكير وبعبارة أخرى ان موضوع الذهن ونتيجته كلاهما واحد . أضف الى ذلك ان قضايا القياس لايمكن القطع بصحتها . فهى فى حاجة أبداً الى التجربة والبرهان

قبل أن أنتقل بالقارى الى بقية أصول هذه الطريقة الديكارتية أورد هنا اعتراض غاسندى وهو فيلسوف وفلكى معاصر على طريقته هذه فقد اعترض عليه

مستهزئاً قائلا لماذا نأخذ الفكر فقط ولماذا لا نقول أيضاً : انى أمشى فاذ أنا موجود Ombulo Ergo Sum فيجيب ديكارت فى تؤدة ورصانه بان تلك حالة خاصة من حالات الانسان وهى حالة جزئية لايصح استنتاج الوجود الا بالنسبة للتفكير والوعى فى الانسان وقولى « انى امشى فاذاً أنا موجود » يشبه تماماً قولى « انى افكر على نحو خاص فاذاً أنا موجود» ومثل هذا المنطق لايجوز استنتاج الوجود منه ، والوصول الى نتيجة حتمية . على أن الذى أقصده هنا هو التفكير بصورة عامة . وعندئذ يصح لنا الاستنتاج ونرى أن الوجود لا ينفك عنه وانه هو والوجود واحد . ومن المعلوم انى لاأشعر دائماً بانى ماشى أو أنى أفكر بنحو خاص بل انى دائم الشعور بانى واع وأن نوعا من التفكير والنشاط الفكرى يجرى بصورة دائمية غير منقطعة وبغير ذلك لا يمكنى الوثوق من وجود نفسى قائمة مجردة .

لم يقف المعترضون عند هذا الحد بل أنهم ساقوا اليه اعتراضاً آخر فقالوا هل يفكر الانسان وهو نائم ؟ قال ديكارت نعم بكل تأكيد اذ من المستحيل أن يقف النشاط الفكرى فى الانسان ولو لحظة قصيرة . وعنده أن ذلك النشاط الفكرى يبتدئ مع الانسان منذ أول وجوده فى بطن أمه . وذلك لان المقوم للانسان هو الفكر . فهو كائن مفكر . والفكر والوجود ذاتيان فيه وهما واحد .

على أن الفيلسوف لوك الانكليزى هزأ بهذا البرهان غير أن قوة حجة ديكارت تظهر عندما نعلم أن وقت ظهور الشعور بالوعى وشروط ظهوره فى الانسان لاتؤثر على جوهر نفس هذا الوعى . وان العالم ككائن مدرك ليس موجوداً الا لنفس مدركة عالمة . وحينئذ يكون اتحاد الفكر والوجود أمراً مفروضاً سابقاً على جميع انواع المعرفة فى الوعى الانسانى والنفس البشرية ، فانا أفكر واذا أنا موجود بديهية لاتحتاج لاى دليل أو برهان .

إن ديكارت لايقف عند هذا الحد فى التفكير بل انه يسير الى آخر الطريق فلا يقتصر على مجرد الشك المنتظم بل أنه يعده أول خطوة فى سبيل الوصول الى اليقين . وعنده أن الشك هو امساك الفكر عن أن يعطى حكما ما على موضوعه . ففى النفس اذاً قوة هى فوق التفكير والادراك ، قوة تسير العقل وتجعله يبدى

حكما على الاشياء أو لا يبدى . فالنفس عنده تتكون من صفتان أساسيتان الاولى قوة منفعلة خاضعة وهى قوة الفهم والعقل والأدراك ، والثانية قوة عليا مسيطرة فاعلة تسير العقل حسب ما تريد ألا وهى الارادة . فالاصل فى الطبيعة البشرية اذا هى الارادة أو الحرية المطلقة

يقول ديكارت إن غاية كل درس يجب أن يرشد العقل لتكوين أحكام صائبة على كل شىء ومجموعة العلوم ان هى الا عقل الانسان وذكاؤه . ولا قيمة للمعارف اذا لم تقو ادراك الانسان وليس الغرض من العقل هو أن يكون آلة للمعرفة بل عنده أن المعرفة حتى أن يكون لها قيمة ما يجب أن تكون ادراكا محضاً لعمل الفكر أثر مستمر فيها . فلا تكون معلومات صامتة يتلقاها الذهن بالسكون والصمت . ولكن ماهو الفرق بين مجرد الاعلام والادراك ؟ الجواب على ذلك هو طريقته التى وصل اليها من دراسته للهندسة والحساب فرعى المعرفة الوحيدين الذين يصح أن يكونا بحق علوما يقينية .

وجد ديكارت وهو ذلك الرياضى المبتكر أن مسائل الهندسة والحساب كما أدلى بها الينا القدماء هى مسائل مفردة غير متصلة بعضها ببعض لا تربطها رابطة وليس بينها وحدة ترد اليها جميعاً . فاوصله ذكاؤه الى ايجاد الرابطة بان طبق الجبر على الهندسة مخترعا بذلك ماهو معروف فى علوم الرياضة باسم الموصلات الكارتيزية والرسم البيانى **Graphes** وقد تم له بذلك ايجاد الصلة بين الجبر والهندسة ومن هنا خطر له ذلك الفكر السامى وهو انه يمكن ايجاد علم عام للرياضيات تنطبق أصوله على الكون باجمعه .

وقد هداه ذكاؤه إلى أن اليقين فى المسائل الرياضية يرجع إلى وضوح المقدمات وضوحا بديهياً بحيث تخرج منه النتائج بلا تعمل وبلا قياس منطقى فهو بذلك يشبه ماوصل اليه فى مسألة استنتاج وجوده من مجرد تفكيره . يعنى انها شبيهة بجملة « أنا افكر فانا موجود » . وديكارت طبق نفس هذه الطريقة على كل فروع المعارف البشرية . وعنده أن علوم الانسان ومعارفه يمكن تقسيمها إلى مجموعات مختلفة متنوعة وان كل مجموعة فيها عنصر ظاهر على بقية العناصر التى هى بالنسبة اليها ثانوية أو نسبية واما مزية هذا العنصر البارز على بقية العناصر فهو الوضوح والبداهة. وكلما كان أكثر وضوحاً وبداهة كان اليقين أمتن وأقوى . على أن

المعرفة تتسلسل ، أى أنها بمثابة سلسلة كل حلقة منها آخذة برقبة الاخرى ، وعلى الانسان أن ينتقل من حلقة الى حلقة ، ومن سلسلة الى سلسلة ، متدرجاً من درجة اليقين حتى ينتهى الى نتيجة حتمية . وحينئذ على الباحث أن يبحث عن علائق بقية العناصر بالعنصر الاصلى حتى نتوصل من المعرفة الاحتمالية الى اليقين التام

ان ديكارت قد بين هذه الطريقة فى مؤلفاته وعلى الخصوص فى كتاب الطريقة اورسالة التأملات التى شرح فيها أسلوبه شرحاً وافياً ونحن نعرض لها هنا بالاختصار.

ديكارت

وضع ديكارت أربع قواعد أساسية لطريقته :

أولا — أن لا نقبل شيئاً مطلقاً الا اذا كان من الوضوح والبداهة بحيث لا يتطرق اليه الشك بحال ونكون على يقين بانه صحيح كل الصحة

ثانيا — كلما قامت مشكلة أو عرض شك من الشكوك يجب أن نجزئه الى أجزاء ثم نعرض إلى جزء جزء فنمحصه حتى يكون يقينيا

ثالثاً — أن نرتب الافكار ترتيباً تدرجياً مبتدئين من الواضح البسيط البدهى ومنتهين الى ماهو أقل منها وضوحاً

رابعاً — وأخيراً أن نسلك فى البحث سلوكا علمياً بحيث نتتبع كل الجزئيات حسب الطاقة حتى نحيط بكل أجزاء الموضوع وبذلك تكون الاحاطة على قد الامكان كلية

هذه هى خلاصة طريقة ديكارت والتى كان لها الأثر الاكبر فى التطور الفكرى فى كل ضروب المعارف البشرية إلى اليوم وأرجو أن اوفق إلى متابعة البحث فى فلسفة هذا الحكيم حتى يتبين للقراء عظمته فى العلم وأثره فى الفلسفة على انى اود ان يكون القارىء على يقين من ان ديكارت كان رجلا متديناً كل التدين متعصباً فى عقيدته الدينية ولم يكن دهريا منكراً أو مشككا متردداً ، كما حاول ان يصوره بعض السطحيين فى العام الماضى بمناسبة ظهور كتاب الشعر الجاهلى .

ع . حسين تقى اصفهانى

لماذا أنا ملحد

عن برتراند رسل

تستعمل كلمة مسيحى فى الوقت الحاضر بمعنًى غير محدود . وقد يقال إن المسيحى هو الذى يعيش عيشة راضية . ولكن يصح القول ، قياساً على هذا ، أنه يوجد مسيحيون فى كل الاديان ، اللهم الا اذا حاولنا أن نثبت أن البوذيين أوالمسلمين أو غيرهم ، لايعيشون عيشة راضية . وهذا مالا يسلم به أحد . فيجب والحالة هذه تحديد المعنى المقصود من كلمة مسيحى ، بانه شخص من الواجب عليه أن يسلم بصحة عدد من المبادئ الاولية المحدودة قبل ان يسم نفسه بالمسيحية

ولم يعد لهذه اللفظة فى الوقت الحاضر ذلك المعنى الذى كان لها فى عهد القديسين الأولين. لأنه كان من السهل الهين فهم مايقصد من لفظة مسيحى اذ ذاك . وما هو الا التسليم المطلق بالنص الحرفى لمختلط من المعتقدات . أما الآن فنحن أميل الى الابهام فى المعنى .

أما المسلمون فعلى الرغم من ايمانهم بالله وبخلود النفس ، لا يعدون مسيحيين . لهذا كان من الواجب على المسيحى ان يعتقد على الاقل بان المسيح كان أعقل وأعظم كل المخلوقات . وعلى أساس هذا الاعتقاد أبدأ بتعريفك لماذا أنا ملحد ، أو بمعنى آخر لماذا لا أسلم بوجود الله وبخلود النفس ، ولماذا لا أعتقد بان المسيح كان أعظم وأعقل كل المخلوقات . ذلك على الرغم من تقديرى واعجابى الشديد بشخصيته .

كان الغابرون يوجبون التسليم بوجود الجحيم ولهيبه المتلظى كركن من أركان المسيحية . ولكن أخذ هذا الركن ينهار ، وعلى الاخص منذ أمد قصير ، بعد ان صدر قرار مجلس البلاط الملكى الأعلى . ولهذا لا أحاول هدم هذه الفكرة التى قضى عليها تشريعنا .

أما الفكرة فى وجود الله ففكرة لها خطورتها ، فضلا عن تشعبها واختلاطها

واذا شئت ان أبحثها بتوسع فسأظل أفعل الى يوم الدين ، اذا قدر لى الخلود . اذن يجب على ان أبحثها باختصار .

أنك ولا شك تعلم أن الكثلكة تطلب منك التسليم بوجود الله بداهة ، لان كل الموجودات لابد من ان يكون لها موجد . فاذا تابعت البحث فى سلسلة الكائنات ، كان لامندوحة لك من ان تصل الى فكرة الوجوب فى وجود الموجد الأول ، وهذا مايطلقون عليه لفظة « الله » . وعلى الرغم من أنى كنت أحاج وأناضل فى سنى شبابى لاثبت ما ينقض هذه النظرية فقد كفانى « جون ستيوارت ميل » عناء الجدل عندما قرأت له ـ قال لى أبى إنه من العبث الاجابة على سؤال « من خلقنى » لانه يرد الى الفكر مع هذا السؤال سؤال آخر هو « من الذى خلق الله . » وفى هذا مايثبت ضعف نظرية الموجد الأول . لانه اذا كان لكل موجود موجد ، وجب ان يكون لله موجد أيضاً . واذا أمكن التسليم بوجود مالا موجد له ، فلم لايكون هذا الموجود هو العالم بدلا من الله ؟ أليس دورانا حول هذا الاعتقاد مثل دوران الهندى حول موضوع الدنيا المحمولة على ظهر فيل والفيل على ظهر سلحفاة : فاذا سئل عن الشئ الذى يحمل السلحفاة هرب من الاجابة . أنى لا أجد سبباً يمنعنا من التسليم بأن العالم وجد بدون موجد وأنه أبدى سرمدى ، وليس هناك من داع للاعتقاد بحدوث الارض وبقية العوالم . ذلك لأن الاعتقاد بحدوثها ليس الا نتيجة لضعف تصورنا .

ولنترك هذا البرهان « الاكليركى » العتيق جانباً ، ولنحاول تفنيد برهان القرن الثامن عشر ، ذلك البرهان الذى قام على نظريات نيوتن . فقد لاحظ الناس ان دوران السيارات حول الشمس لابد من ان يكون نتيجة محتومة لقانون الجاذبية . فقالوا إنها إنما تدور دورتها هذه تلبية لامر أصدره الله اليها . ثم اكتفوا بالجهد الذى بذلوه فى سبيل الوصول الى هذا الحل ، وقد حدسوا أنهم قد استقر بهم نوى البحث فى تفهم أسرار الجاذبيه . ولم يلبثوا على هذا الاعتقاد غير قليل حتى داهمهم «انشتين» بنظريته فى «النسبيه» فحطم أفكارهم ومبادئهم اذ أثبت ان كثيراً مما أسماه الناس « قوانين الطبيعه » ليس الا تخيلات وأوهام لا أساس لها . فاذا كان طول الثلاثة أقدام يساوى ياردة واحدة ، فليس معنى هذا الاستكشاف أننا عثرنا على أحد القوانين الطبيعيه . وكذلك قل فى الذرات

وتفاعلها . فانها أبعد عن ان تسير على قانون مرسوم . ومامثلها الا كمثل الاحتمالات المنطقية في « زهر » النرد الذى اذا رميته ٣٦ مرة ، فقد يحتمل ان يأتيك « الدش » مرة واحدة . ولو حدث هذا لما عد غريباً لانه محتمل الوقوع . على العكس مما لو أتى « الدش » عدة مرات متتابعة . فما نسميه « قوانين طبيعية » اذن ليس أكثر من احتمالات .

ولو ضربنا صفحاً عن كل ماسبق ذكره ، لوجب علينا ان لاننسى ان العلم دائم التغير . فقد نعثر فى الغد على مايقلب نظريات اليوم رأساً على عقب . فالاعتقاد أو التسليم بوجود « مقنن » أول ، ما هو الا تخليط بين ماهو « طبيعى » وما هو « وضعى » من القوانين . فالقوانين « الوضيعة » ترسم لنا الطريق التى يجب اتباعها عندما نرغب فى عمل شىء ما . كما ان لنا مطلق الحق والحرية فى ان نعمل أو لا نعمل شيئاً بذاته . فى حين ان القوانين «الطبيعية» ليست أكثر من بيان عن كيفية حدوث الاشياء . فهى وصفيه . وما دامت كذلك ، فكيف يصح التدليل بها على ان هناك موجد ؟

وقد يسألنا سائل عن السبب فى ان الله خلق هذه القوانين على هذه الصورة ، ولم يخلقها على صورة أخرى . فاذا كان الجواب أنه فعل ذلك لاسبب سوى مجرد اللهو ، نتج عن هذا ان كل مانرى من ظاهرات لايخضع لقانون ، بل لرغبة . وان أرجعته الى سبب ما مثل جعل العالم على أحسن نسق وعلى أتم نظام ، كان حسن النسق وتمام النظام هو الذى أوحى الى الله بما فعل . وبذلك نضع الله تحت رحمة القانون الطبيعى .

وهنالك من يقولون بان كل مافى العالم قد صنع وأبدع ليتيسر لنا العيش فى هذه الدنيا ، التى لو كانت على الضد مما هى عليه الآن لتعذر علينا البقاء فيها . ولكن أليس فى ابداء هذا السبب مماثلة لقولنا إن للارانب أذناباً بيضاء ليتيسر لنا اصطيادها ؟ ولست أعرف بالدقة رأى الارانب فى هذا الموضوع ، ولكنه يذكرنى بنكتة لفولتير اذ يقول « إن الانف فى الانسان لم يوجد الا لتثبت عليه العوينات الصناعية » . ولكن لسوء الحظ قد هدم داروين هذه الفكرة البديعة بنظرية « الاندماج فى البيئة » فاثبت ان الناس نشؤوا لانهم استطاعوا البقاء وسط البيئة التى تكتنفهم على العكس مما خيل الى الغابرين من ان البيئة قد

هيئت ليتيسر للناس البقاء فى محيطها . ومن الغريب ان الناس يتعامون عن رؤية النقائص التى تحيط بهم . فهل من التناسق فى شىء ان تجد من حولك فى هذا العالم جمعية كجمعية « كوكلوكس كلان » ونظام كالنظام الفاشستى ، وحكومة كالسوفيت ، ووجه كوجه المستر تشرشل ؟

كذلك ينذرنا العلم بأن هذا العالم آيل الى الفساد . وسوف يأتى وقت لا يصلح فيه الجو الا لبقاء ذوات الخلية من الحيوانات الدنيا . وما علينا الا ننظر للقمر ونتأمل من حالته لنفهم معنى الفناء والبرد القارس . ولكن من من الناس يهتم بما سوف يحدث بعد ملايين عديدة من السنين .

ومع أن « عمانوئيل كانت » قد أودى بالاسباب الثلاثة التى كانت تعزز فكرة وجود الله فى عصره ، فانه أنشأ من عندياته سبباً استمده مما لقنته اياه أمه وهو ملقى على ركبتيها . وكان السبب الذى أقام عليه فكرة وجود الله قويا راسخاً أمام عقلية القرن التاسع عشر . قال : اذا لم يكن الله موجوداً فليس إذن من خير ولا شر « حرام أو حلال » ولا أرغب فى أن أبحث فيما اذا كان هنالك فرقاً بين الخير والشر . غير انى أقول انك اذا اعتقدت بوجود فارق بين الاثنين تعين عليك أن تجيب على ما يأتى : هل نتج هذا الفارق بأمر الله ؟ فان كان كذلك أجبتك بأن لا فارق بينهما عند الله ، وهنا يتعين عليك أن لا تقول بأنه إله خير . لأنك إذا أفردته بصفة الخير وحدها وجب عليك التسليم بأن الخير والشر شيئان بعيدان عن ارادته ، بدليل أنه يتصف بأحدهما دون الآخر . والا فلا مناص من القول بأنهما صفتان ملازمتان لذاته ، وانه اتصف بالخير نزولا على ارادة أعلا من ارادته أو تشبهاً بذات أرقى من ذاته ، وان الشر قد احتل العالم بارادة الشيطان على حين غفلة من الله .

قيل بأنه من الضرورى أن يوجد آله حتى يعم العدل نواحى العالم . ولكننا نرى أن الظلم يكاد يشمل أكثر أنحاء الارض . ومن الهين علينا أن نلاحظ أن الآلام والمصائب تلازم الخيرين ، فى حين أن الشريرين دائمو النجاح . أما اذا بسط العدل جناحيه على ربوع العالم ، فلا شك فى أننا لا نلتمس فى الآخرة جنة ، ولا نتحاشى سعيرا . ولو أنك ألقيت على حالات العالم نظرة عميقة لأدركت لأول وهلة أن علمك بما فى هذه الدنيا يوازى جهلك بما فى غيرها . إذن يصح لك أن

تستنتج ، ما دامت هـذه الدنيا على ما هى عليه ، أن فى غيرها يوجد ظلم بقدر ما هو موجود فيها . ومثال هذا ما يصح استنتاجه لو أنك فتحت سلة من التفاح فوجـدت ان أول طبقة منه قد نغلت وفسدت . فانك لامحالة تقول : « ان ما شاهدته ليس الا نموذجا يدل على فسـاد الطبقات الاخرى » . وهـذا بالضرورة يكون أقرب لما يقضى به العقل من قولك : « ما دامت هـذه الطبقة رديئة ، فلا شك فى أن ما يليها حسن غير فاسد » .

***

لنرجع الآن الى بحث فكرة ان المسيح هو أعظم وأعقل المخلوقات بل والكائنات . إن كل الناس متفقون على هذا الامر . ولكنى لسوء الحظ أخالفهم فيه ، على الرغم من أنى أتفق والمسيح فى عدد من الآراء أزيد مما يتفق معه عليها أشد المتمسكين بالمسيحية . وأظنك تتذكر قوله : « لا تقاوم الشر بالشر . فمن ضربك على خدك الايمن حول له الأيسر » . فقوله هذا ليس بجديد ، وقد سبقه إليه لاؤوتس وبوذا من قبل أن يولد بخمسمائة أو ستمائة سنة . ومع ان المسيح قد وافق عليه وقبله ، فان المسيحيين لم يقبلوه أبداً . فانى مع اعتقادى الراسخ فى أن رئيس الوزراء الحالى من أصـدق المسيحيين تمسكا بالمسيحية وأرسخهم إيمـاناً ، فانى لا أجرؤ على أن أنصح أحداً بأن يذهب اليه ويشبعه صفعاً . ومن مأثور قوله : « لا تدين كى لا تدان » ولكن محاكم الدول المسيحية لا تعلق أهمية على هذا القول . فقد بلغنى أن عدداً كبيراً من القضـاة المسيحيين الذين اتصفوا بثابت اليقين وراسخ الايمان ، قد قضوا بأحكام تناقض هـذا القول ، من غير أن يشعروا ساعة بأنهم قد خالفوا مخلصهم ومخلص الانسانية . ثم هو يقول : « ان أردت الكمال فاذهب وبع ما تملك ثم وزعه على الفقراء » ومع ان هذا رأى جميل فليس هناك من يهتم باتباعه . والسبب فى عدم اتباع هـذه الارشادات ينحصر فى صعوبة تنفيذها . وحتى أنا لا أقدر على اتبـاعها . وكذلك يقول : « أعط الذى يطلب منك ولا تهرب ممن يأتيك ليستعير » ولا شك فى أن هذا القول جميل . ولكن من ذا الذى يتبعه ؟

مع اعترافى بما فى هذا الاقوال من الجمال ، فان للمسيح آراء لا أوافق عليها . وبهذا أستطيع أن أنفى عن المسيح شخصيته العليا . على أنه يوجد شك كبير فيما

اذا كان المسيح قد وجد حقيقة ! فاذا فرضنا ان وجوده قد ثبت ، فليس لدينا علم تام بتاريخه وحالات حياته . إذن فليس لى أن أتكلم الا فى المسيح الذى ذكرته الاناجيل ، وكما صورته على علاته . وهنا نجد أشياء لا نستطيع أن نسلم بها أو نوافق عليها . فمثلا كان يعتقد انه سوف يرجع الى هـذه الدنيـا مكللا بسحب من المجد قبل أن يموت الذين عاصروه . فقد قال : «لا تدخلوا مدن اسرائيل الى أن يرجع بن الانسان » وقال : « لايذوق بعض الحاضرين هنا طعم الموت قبل أن يرجع بن الانسان الى مملكته » الى غير ذلك ، وهو كثير ، مما يدل على انه كان ثابت اليقين فى هذا الامر . وبهذا اعتقد حواريوه . وكان اعتقادهم هـذا دافعاً أدبيا عظيما لهم . على ان المسيح عند ما قال : « لا تفكر فى الغد » كان يعتقد برجوعه سريعاً الى هذه الحياة الدنيا . ولا يزال بعض المسيحيين ينتظرون رجوعه حتى الآن . وفى الواقع ان قدماء المسيحيين قد صدقوا هذه الدعوى وامتنعوا عن التفكير فى الغد . أما اليوم .... فان الغد قبلة كل نسان . وبهذا أستطيع أن أقول انه لم يصب فى قوله هذا .

وكذلك أجد ضعفاً فى تعاليم المسيح الاخلاقية من ناحية اعتقاده فى الجحيم . لأن تكوين الانسان يتنافى مع العذاب الدائم الأليم . وهذا ما تعزوه الاناجيل الى المسيح . فى حين انك لا تقع على مثل هذا الخطل فى آراء سقراط . فانه كان أكثر رحمـة وشفقة ببنى الانسان . وليس بغائب عنا ما قال سقراط لقوم من المخالفين وما ردده قبيل وفاته . كذلك لايغيب عنا ما قال المسيح لسامعيه : « أيتها الثعابين يا نسل الافاعى كيف يمكنكم الهروب من نار الجحيم » . ذلك لأنهم لم يكونوا من أتباعه . على ان عقلى لايسلم بأن هـذه اللهجة مستحسنة . وعلى هذه الوتيرة تجد أقوالا كالسابقة تدور حول عذاب جهنم . ثم اذكر قوله : « ان الذين يتهامسون ضد الروح القدس لن يسامحوا فى الدنيا ولا فى الآخرة » فهل من قول سبب للعالم مصائب أكثر مما سبب هـذا القول ؟ فان كثيراً من الناس اعتقدوا ، ان حقا أو باطلا ، انهم ارتكبوا خطيئة ضد الروح القدس ؟ وثبت فى روعهم هذا الاعتقاد حتى لقد يئسوا من الغفران فى الدارين . أما عقلى فلا يطاوعنى على التسليم بأن من تنطوى نفسه على مقدار كبير من الرحمة ، يمكن ان يتلفظ بمثل هذه الاقوال .

قال المسيح : « سيرسل ابن الانسان ملائكته ليجمعوا من العالم كل مايشين وكل مايخالف العدل . وهنالك يكون العويل وصرير الاسنان » ثم يستمر فى الضرب على نغمة «العويل وصرير الاسنان» حتى ليخيل إليك ان فى ترديد العويل وصرير الاسنان شيئاً من اللذة ينبعث فى نفس مردده ، والا لما رددت بسخاء . وكذلك نذكر مسألة الخراف والماعز ! وكيف انه عند رجوعه الى الارض سيفصل الخراف عن الماعز وسيقول للماعز : « ابعدوا عنى أيها الملاعين الى النار الابدية » ثم يقول : «وسيذهبون الى النار الأبدية كلهم » ويقول أيضاً : « اذا ضايقتك يد لك فاقطعها، لأنه أحسن لك أن تعيش بيد واحدة من أن تدخل النار بيدين ، تلك النار التى لا تخبو ، وحيث الحر لا يزول والنار لا تنطفىء » . ثم يردد هذا القول المرة بعد الاخرى . أما اعتقادى فهو أن هذه التعاليم وما يماثلها مما يذكرنا بالنار والعذاب تكفيراً عن الخطايا ، ليست الا نظريات وحشية تورث أهل الارض ألواناً العذاب القاسى . ولو ماشيت الاناجيل على ما صورت به المسيح ، فلا شك فى انك تتهم المسيح الذى صورته هذه الاناجيل بأنه السبب فى أكثر ماعانى أهل الارض من قسوة .

ولنرجع الى أمر أقل من هذا خطراً ، وهو مسألة الخنازير التى دخلت أجوافها الشياطين ودفعتها على إلقاء نفسها من فوق التل الى البحر . أفلم يكن فى مقدوره ان يطرد هذه الشياطين بعيداً بدلا من أن يأمرها بالحلول فى ابدان هذه الخنازير المنكودة ؟

وإليك قصة شجرة التين . وهى من القصص التى أعجب منها أشد العجب . فقد كان المسيح غاضباً . ولما رأى شجرة التين مظلة يانعة ظن ان بها ما يأكله فلما قاربها ولم يجد بها ما يسد رمقه لأن وقت اثمارها لم يكن قد حان قال لها : « لن يأكل من ثمرك انسان بعد اليوم » فقال له بطرس : « أيها السيد انظر الى شجرة التين فقد جفت لأنك لعنتها » أليست هذه قصة عجيبة ؟ وهل يوجد من يؤاخذ النباتات على مالم ترتكب من ذنب ، اذا صح ان يقال انها ترتكب ذنوباً ! ! ! وأغلب ظنى ان هذه الذكريات لا يصح أن تعزى الى رجل عظيم . ومما سبق يتضح ان بوذا وسقراط كانا أرفع شأواً من المسيح ، اذا رجعنا الى سيرة حياتهما .

يقبل الناس الاعتقادات الدينية ، لا على أساس من التفكير الصحيح ، بل على أساس من الميل والعواطف . ومنهم من يحذرنا من مهاجمة الاديان وتسفيهها ،

بحجة ان الاديان هى السبب فى أن يستمسك الناس بالفضائل . غير أنى لا أرى رأيهم هذا .

وهنا يجدر بى ان أذكر قصة « بطلر » التى ذكر فيها ان بطلا أراد أن يزور أرضاً نائية ثم يفلت منها فى « منطاد » وعندما يرجع إليها ثانية بعد مرور عشرين سنة على خروجه منها ، يجد أن الناس قد غيروا دينهم ، وأخذوا يعبدونه باسم « ابن الشمس » ظانين انه صعد إلى السماء ، ويتصادف ان عيد الصعود قد أصبح قريباً ، ويسمع أستاذين هما من كبار رجال « الابن الجديد » يقولان انهما لم يريا الا له الذى يعبدانه ولا يريدان أن يرياه ، فيتقدم إليهما قائلا انه بذاته ذلك الرجل الذى صعد فى « المنطاد » وانه سيكشف الحقيقة للناس كافة ويعرفهم انهم مخطئون ، فيمنعانه عن مصارحتهم بالحقيقة حتى لا تندك معالم الاخلاق التى قامت حول الاسطورة قائلين : « اذا عرف الناس انك لم تصعد الى السماء انحطت أخلاقهم » وبذلك يرجع من حيث أتى مقتنعاً بما قالاه .

وعلى مثل هذه القاعدة بالضبط تقوم فكرة الذين يدافعون عن المسيحية . فهل معنى هذا ان الذين اعتنقوا المسيحية كانوا قبل اعتناقها أشراراً؟ على العكس من ذلك اعتقد أن الناس كلما ازداد استمساكهم بالدين زادت شرورهم وانتشرت الفوضى . أليس عهد الايمان هو ذلك العهد الذى اينع فيه نظام التفتيش بفظائعه وفى خلاله أحرق ألوف الالوف من النساء بتهمة السحر والشعوذة ، واقترفت أفظع الجرائم باسم الدين ؟ ولو أنك تأملت من التاريخ قليلا لوجدت ان كل تقدم فى المشاعر والعواطف الانسانية ، وكل اصلاح فى القانون الجنائى ، وكل خطوة خطاها الانسان نحو العمل على تحسين الروابط والمعاملات الدولية بين الامم ، وكل فكرة فى تحرير العبيد وفى الاحسان الى الامم الملونة ، إنما تم على كره من من الاديان . وهنا يجب ان أعلن على رؤوس الاشهاد ان الكنيسة كانت ولم تزل العدو الألد لارتقاء مستوى الاخلاق فى العالم . أما كيف كانت الكنائس سبباً فى صد العالم عن التقدم ، فاليك الشرح والبيان .

لنفرض أن ابنة طاهرة الذيل أوقعها سوء الحظ بان تزوجت من رجل مصاب بالزهرى . فهل ينتظر من الكنيسة الكاثوليكية أن تقول من شىء ازاء هذا الامر الا أن هذا زواج مقدس لا تفصم عروته والواجب أن يظلا زوجين مدى

الحياة . وهكذا تجبر المرأة على أن تصاب بهذا الداء الوبيل ، كما انها ممنوعة شرعا عن عمل كل ما من شأنه أن يمنعها عن التناسل لكى لا تلد أطفالا يحملون فى أجسامهم جراثيم هذا المرض . أليس فى مثل هذا العمل منتهى الفظاعة ؟ ومن ذا يحكم هذا الحكم الجائر على امرأة نقية الذيل وأطفال أبرياء الا من تجرد عن كل العواطف الانسانية . وهذا مثل واحد من أمثال عديدة لما تقترفه الكنيسة من الفظائع على الابرياء باسم ماتختلقه من المحللات . فهى لاتمانع فى تقدم العالم ماديا لا غير ، بل تقف عثرة فى سبيل ارتقائه اخلاقياً . ولسوء حظ الانسانية نجد الكنيسة تدعو الناس الى العكوف على كل مايؤلم ويضنى ، فكأنها منبع آلام ومصدر شقاوات عديدة . ذلك بحجة أن الآلام هباء مادامت هى تنزل بالانسان من أجل ترقية الاخلاق. فاعتقاد الكنيسة إذن يقوم على أن الاخلاق لايتصف بها المرء ليسعد بل ليشقى . وهكذا يظهر أن رؤوس الكنائس قد اصطنعوا ضربا من الاخلاق يصلح لأن يتصف به الناس فى العالم الثانى ، وليس فى هذا العالم الفانى .

انما تقوم الأديان على أساس الخوف من الموت ومن الاندحار ومن كل شىء . والخوف منبت الفظائع . فلا بدع إذن إذا سايرت الفظائع الأديان جنباً إلى جنب وقدما بقدم .

لقد استطاع العلم بطرقه الايجابية أن يعرفنا شيئاً من أسرار مايحيط بنا من الاشياء ، وأن نسيطر عليها . وافلح العلم فى أن يغزو الأديان ، وكل ماهو متوارث تقليديا من الخرافات . ولسوف يساعدنا العلم على الاحتكام فى هذا الخوف الذى استبد بنا أجيالا عديدة . ولقد بدأ العلم يلقى فى روعنا ويهمس فى شعورنا بان الواجب يقضى علينا بان لانتلفت من حولنا باحثين عن مدد من عالم الخيال ، وأن لاننتظر أن يهبط علينا أحلاف يأخذون بيدنا من بين طباق الجو والسماء . بل بدأ يعلمنا كيف يجب أن نعتمد على مانبذل من جهد فى هذا العالم الدنيوى ، على اعتبار انه أنسب مكان يمكن أن نعيش فيه . وهذا أفضل بكثير مما تصوره لنا خزعبلات رجال الدين

فلنحارب الدنيا بسلاح الذكاء ، ولنقلع عن محاربتها ومجاهدتها بالخضوع رهبة وفزعا . ان فكرة الله قد نشأت من نظام الاستبداد الشرقى . وهذه الفكرة

لاتصلح لان يعيش بها الرجل الحر . فاذا سمعت الناس فى الكنيسة يقولون انهم خطاة بائسون أو ما ماثل ذلك ، فما عليك الا أن تحتقرهم لانهم لايحترمون أنفسهم اذ يجب علينا أن نقف على قدمينا ونواجه العالم بجرأة وصلابة ، وأن نستفيد من الدنيا باقصى مايمكننا . فاذا اتضح لنا أن هذه الدنيا غير مستحبة ، فلنكن مطمئنين على أية حاول لفكرة أنها أحسن بكثير مما يحاول البعض أن يصورها لنا .

أما إذا أردنا ان نجعل الدنيا مقام خير وسعادة ، فالواجب علينا أن نتذرع بالمعرفة والرفق والشجاعة . ولا الزام لان نتمسك باذيال الماضى ، ولا أن نحاول طمس ذكائنا بآراء سخيفة ارتآها بعض أغبياء العصور الخالية .

نحن فى حاجة إلى الأمل فى المستقبل . وليس بنا من حاجة للتطلع الى الماضى الذى دفن . فان الغد دائما أسبق من الأمس بما تنتجه قرائحنا .

حسين محمود

تغاير العادات

وتأثيرها فى تكوين الانواع

فى الشتاء وفى شهر يناير سنة ١٩٢٥ ، حيث يشتد البرد فى شمال الدلتا ، لاحظت بجوار مجرى من مجارى الماء وجراً أوت اليه عدة من الجرذان لاينقص عددها عن الخمسة ولا يزيد على السبعة . وكان الوجر فى أصل دغل من أدغال الطرفاء ، على حافة قنطرة من القناطر التى يتخلف عندها فجوات يركد فيها الماء خلال فصل الجفاف الشتوى . أما لون هذه الجرذان فاحمر الى صفرة وهى متوسطة الحجم ، وطول شعرها عادى ، وكذلك بقية الأصاف العامة ، فانها قياسية ، لاتخرج بشىء من الانحراف عن صفات بقية النوع المعروف فى مصر .

لاحظت أن هذه الجرذان تخرج مسرعة من جحرها هابطة فى المنحدر إلى ذلك الماء الراكد ، ثم تختفى فجأة . فاسترعت هذه الحركة انتباهى وحققت النظر فاذا بها تغوص فى الماء ، كأنها من الحيوانات المائية بطبيعتها ، مع ان جرذان

الغيط لاتغشى الماء الا مرغمة عليه اتقاء لخطر أو فراراً من مهاجم . ثم رأيت بعد ذلك ان هذه الجرذان لاتلبث بعد غوصها فى الماء ان تخرج الى الشاطئ من حافة الماء المحاذية للبر حاملة بين أفكاكها شيئاً أبيض اللون تسرع به الى جحرها . وبعد التحقيق تأكدت أنها تصيد من غمر الماء أسماكا صغيرة تفترسها . أما طول السمكه منها فكان لايزيد على بوصتين وعرضها لايربو على ثلاثة ارباع البوصة ولم أعرف أكانت هذه الاسماك حية أم ميتة . والراجح أنها كانت حية ، ولكن المؤكد أنها كانت فى حالة ضعف تام ناتج بالطبيعة عن شدة برودة الماء فى جوف الشتاء وفى ضحضح راكد ، وضيق المحيط المحصورة فيه وعجزها عن الحصول على غذاء كاف يحفظ عليها قسطاً من القوة الحيوية كافياً للدفاع عن نفسها أو الهرب من مفترسها

أما طريقة الغوص فكانت مما يستدعى العجب . فكنت أرى الجرذ يخرج من الحجر مسرعاً نحو الماء ، ولا ألبث أن أراه اختفى فيه من الناحية المحاذية للشاطئ تماماً ، كأنه لايغوص فى الماء بمعنى الغوص ، بل كان يمشى مسرعاً الى قاع الضحضح على رجليه وكذلك يعود ، غير معتمد على شىء الا على صبره فى الامتناع عن التنفس مدة بقائه فى غمر الماء ، وما كان بالطبيعة ليستعين على ذلك الا بخاصية فى تكوينه ، هى فى الغالب كبر فى رئتيه يخرج بها عن القياس العام .

على ان جرذان الغيط العادية قد تعوم فى الماء سابحة ، وفى طريقة عومها نزعة الى الغوص فانك تراها تغوص حيناً وتطفو آخر ، ولكنها لاتمكث تحت سطح الماء أكثر من خمس ثوان . وقد تعبر عائمة غديراً تبلغ سعته خمسة أمتار أو أكثر قليلا ولكن اذا اتسع أمامها المدى فانها تعود الى الشاطئ تارة أخرى منهوكة القوى مفضلة مواجهة خطر قد يتفق أن تسنح لها فرصة الفرار منه على الموت المحقق اختناقاً . أما الجرذان التى رأيتها فقد لاحظت أنها قل تظل غائصة مدة لاتقل عن دقيقة ولا تزيد على دقيقة ونصف . وهى مدة طويلة جهد الطول اذا قيست بعجز بقية أفراد النوع عن الغوص لاكثر من بضع ثوان معدودات . فاذا ذكرت مع هذا ان عمق الماء الذى كانت تغوص فيه يبلغ متراً ونصف متر علمت ان ضغط الماء فى القاع على حيوان ذى عادات برية صرفة ، قد يزيد فى تطلب تلك المؤهلات التى تجعل فرداً منه أو عدة أفراد تستطيع الغوص الى ذلك العمق .

هذه المشاهدة الطبيعية أثارت فى شهوة البحث فى مسألة أثار غبارها الطبيعيون

فى أواسط القرن التاسع عشر ، ومن ثم تناولها العلامة داروين بابحاث مستفيضة فى كتابه أصل الانواع . لهذا أمهد للبحث بنظرة فى طبيعة الجرذان ، ثم أعقب على ذلك برأى العلامة داروين ، وما يعن لى من الملاحظات فى تطبيق مذهب النشوء على هذه الحالة الخاصة

***

يقال لأسرة الجرذان فى اللسان الحيوانى « موريدا » — **Muridae** — اصلاحاً، وهذه المجموعة من الاجناس والانواع أكثر مرتبة القوارض **Rodentia** انتشاراً فى الكرة الأرضية .

ولقد تحققت ان لكثير من صور هذه المرتبة صفات مائية ثابتة ، كما ثبت للعلماء فى بلدان كثيرة . لهذا أمضى فى وصف بعض الصور بايجاز ، لنظهر على الأقل ان فى نزعة بعض جرذان الغيط الى عادات مائية رجعى الى صفات قد تكون فقدتها على مر أزمان طوال .

ففى أوستراليا أسيرة **Sub-Family** من الجرذان المائية تدعى اصطلاحاً « الهيد رومنيا » **Hydromyinae** واجناس هذه الاسيرة خصيصة باستراليا وغينيا الجديدة . أما الخصيصة باوستراليا فتدعى اصطلاحاً « هيدرومس كريسوجاستر » **Hydromys chrisogaster** وهى من القوارض المائية المغشاة الاقدام . أما مخالبها وكذلك الغشاء الذى يكون فى المخالب الخلفية فاكبر من الامامية وأكثر نماء . وشعر ظهرها أسود اللون ، مغشى بشىء من اللون الذهبى . ومقدم أنفها مغطى بشعر كثيف ، وبه يستطيع الحيوان أن يغلق خياشيمه . وطول الجسم من مقدم الرأس الى أول الذنب ١٢ بوصة ، والذنب وحده عشر بوصات . وهى تعيش أيضاً فى جزيرة طسمانيا التى تعتبر جزءاً من أوستراليا ، وهى ليست بقليلة على شواطئ الانهار . وتكوين الجمجمة فيها يختلف عن بقية الانواع المائية الأخرى . وهذا الجنس عينه يقطن جزائر غينيا الجديدة حيث يمثله نوع يقال له اصطلاحاً « هيدورمس بيكارى » **Hydromys beccari** ويتبع هذه الاسيرة اجناس أخر منها جنس يقطن كوينزلاند ، ويدعى اصطلاحاً « إكزيرومس ميوديس » **Xeromys myoides** والجرذ المائى الخاص بغينيا الجديدة ، ويدعى اصطلاحاً « كروسوميس مونكتونى » **Crossomys moncktoni**

وجنس آخر يعيش فى « هويتهد » ويدعى اصطلاحا « كروسوميس ويتهداى » Chrotomys Whiteheadi يجمعان مع عاداتهما المائية ، عادات برية ثابتة .

أما فى انجلترا فلتقارب الاوصاف بين جرذ الغيط وجرذ الماء قد وضعا ضمن اسيرة واحدة تدعى اصطلاحا « الميكروتينا » Microtinae فى حين يصرف على الجنس المائى اسم « ميكروتس امفيبيوس » Microtus amphibius وعلى الغيطى اسم « ميكروتس اجرستيس » M.agrestis اصطلاحا . أما جرذ الماء فيعيش على حوافى الانهار والغدران وقد توجد جحوره فى الاودية التى يجرى فيها الماء أو فى الغيطان المحروثة . وقال البعض انه رأى جرذان الغيط فى انجلترا تفترس حيوانات أخر ، غير أن الاكثرين على نقيض هذا الرأى . أما طعامها فى الصيف فلب بعض الاعشاب ، وفى بعض الاحيان فروع بعض الحشائش المائية . أما اذا اشتد بها الجوع خلال فصل الشتاء فتأكل لحاء الاشجار والاعشاب ، وقد تغشى بعض غيطان الصفصاف ، فتحدث بها اضراراً جمة . وفى المقاطعات الزراعية لاتأنف من أكل بعض الخضر والبطاطس وما الى ذلك . وأما جرذان الغيط ، وهى من اسيرة واحدة مع جرذان الماء كما قدمنا ، فغذاؤها الحبوب والجذور والاعشاب بأنواعها . فاذا اشتد بها الجوع فى الشتاء لندرة المواد الغذائية ، فانها كثيراً ما تعتلى الاشجار لتغتذى بلحائها ، ولا تأنف أن تغتذى بالحشرات أو اللحوم .

ولقد لاحظت ان جرذان الغيط فى شمال الدلتا بمصر قد تهاجم حيوانات تضارعها حجما لتفترسها اذا اشتد بها الجوع . فقد رأيتها اذ بلغت من كبر الحجم والقوة مبلغاً ما ، تهاجم الارانب الكبيرة وقد تسطو على أبراج الحمام فتقتل أفراخه أو تحملها الى أوجارها .

***

من ثم نمضى فى ذكر ملاحظات العلامة « داروين » لدى بحثه فى تغاير العادات وتأثيرها فى تكوين الانواع ، راجعين فى كل ذلك الى ما كتب فى الفصل السادس من كتابه « أصل الانواع » لنشفع ذلك بتطبيقات نستند فيها على ما بثه من المبادئ فى كتابه هذا . قال :

« كثر ما تساءل منكرو مذهب النشوء كيف ان حيواناً من الحيوانات

المفترسة قد يتحول الى حيوان بحرى مفترس وكيف يتيسر لهـذا الحيوان أن يحتفظ بكيانه خلال هذا الانقلاب النشوئى الكبير »

« إن من الهين ان نظهر هؤلاء المنكرين على حيوانات تعيش فى عصرنا الحاضر مستكملة لكثير من صفات التدرج والانقلاب بتركها عاداتها البرية الصرفة وجنوحها الى عادات مائية ، أو نثبت لهم ان بقاءها إذ هو عائد الى انتصارها فى التناحر على تنازع البقاء ، يصبح رهناً على ان يكون كل منها ذا كفاءة تامة لتحمل الأعاصير التى تحف مركزه فى الطبيعة . انظر فى « المستيلوفيزون » **Mustelo-vison** وهو نوع الدلق الذى يقطن أمريكا الشمالية ، وتأمل من أقدامه المغشاة ، ومشابهة فروه لفرو القندس **Otter** وأرجله القصيرة وذنبه الأثرى ، تجد ان هذا الحيوان قد هيئ بهذه الصفات لكى يغوص فى الماء خلال فصل الصيف فيقتات بالاسماك التى يفترسها حين غوصه ، حتى اذا ما أدرك الشتاء وناء بزمهريره القارس وطول مداه فى تلك الاقطار ، ترك تلك المياه المتجمدة بثلوجها وافترس الجرذان وغيرها من فرائس اليابسة متابعة لبقية أنواع سنانير القطب **Pole-cat** » فى عاداتها

« وفى هـذه الحال ، كما فى غيرها من الحالات ، أجدنى محوطاً بكثير من المصاعب والمشكلات ، حيث لم أعثر فى مجمل ماجمعت من المشاهدات والاسانيد إلا على مثال أو مثالين منهما استطعت ان أثبت التدرج الانقلابى واقعاً فى العادات والتراكيب الخاصة بالانواع المتقاربة الانساب ، المتدانية اللحمة . وكذلك الحال فى العادات المتنافرة المتباينة فى النوع الواحد ، سواء أكانت هذه العادات ثابتة فى طبيعة النوع ، أم طارئة متغايرة ذلك على الرغم من أنى مقتنع تمام الاقتناع بأن ذكر كثير من المشاهدات والأسانيد خير وسيلة نتخطى بها تلك الصعاب التى تعترض أبحاثنا فى بعض الحالات الخاصة » .

ثم قال من بعد ذلك ـ « إن الانتخاب الطبيعى فى مستطاعه ان يجعل تركيب كل كائن عضوى موافقاً لما تتطلبه عاداته المتغايرة ، أو ان يخص تركيبه بحالات توافق على الاغلب عادة واحدة من عاداته المختلفة . ومن الصعب على وجه الاطلاق ان نحكم فى أيهما يبدأ بالتغاير قبل الآخر ، أهى العادة ثم يتلوها التركيب العضوى متابعاً لها ، أم هو التركيب العضوى الذى يبدأ بشئ من التهذيب الضئيل غير المحس ، فيسوق الى تغاير العادة ؟ على ان الظن الغالب يحملنا على الاعتقاد بان

كليهما يأخذ فى التغاير فى وقت واحد تدرجاً فى خطاً متكافئة » .

ثم قال — «لاحظت أفراداً من «السروفاجس سلفيوراتس » Sauropbagus Sulphuratus اى « صائد الذباب » تحلق فوق بقعة معينة زماناً قصيراً ، ثم لاتلبث أن تنتقل الى غيرها ، كما يفعل الصقر الاحمر Kestrel أو تقف محلقة ثابتة فى مكانها على حافة الماء الراكد ، ثم تنقض فى الماء شأن القرلى (١) Kingfisher اذا أراد أن يقتنص سمكة من عمق الماء » — ثم قال — « ورأيت أفراد «البارس ميجور » — Parus major — تتسلق أغصان الاشجار بمهارة فائقة كما لو كانت من الحيوانات المتسلقة بطبيعتها . وقد تقتل فى بعض الاحيان طيوراً صغيرة بضربة قوية شديدة تسددها الى رأس الطير ، كما هى عادة الصخاب Shrike وروى مستر « هرن » Hearne أنه رأى دباً أسوداً فى شمال أمريكا يسبح فى الماء ساعات فاغراً فاه ، كما يفعل الحوت الكبير ، فيقتنص كثيراً من الحشرات السابحة على سطحه » .

ثم قرر ما يأتى — « واذ تدلنا المشاهدات على أن افراداً ماقد تتبع عادات مخالفة للعادات القياسية التى تكون لنوعها الذى تلحق به ، بل مخالفة لعادات الأنواع التابعة لجنس واحد فى مراتب النظام العضوى ، فلا جرم نتوقع فى مثل هذه الحالات أن تلك الافراد سوف تنتج فى بعض الظروف أنواعا جديدة ذوات عادات متجانسة ، وتراكيب تختلف عن تراكيب أصولها التى نشأت عنها اختلافا ضئيلا أو كبيراً ، بمقتضى مايكون من تأثير الظروف التى تحيط بها وتكون سبباً فى نشوئها »

ثم مضى فى ذكر المشاهدات التالية دليلا على صحة نظريته : قال — « وهل فى الحالات الطبيعية كلها حالة تثبت التكافؤ الخلقى للظروف المحيطة بالعضويات أبلغ مما نشاهده فى ثقاب الخشب — Woodpecker — وكفاءته التامة على تسلق جذوع الاشجار والتقاطه الحشرات وهى تحت لحاء الشجر ؟ ومع كل هذا فان فى شمال أمركا ضروبا من ثقاب الخشب تتخذ الفاكهة غذاء . وهنالك صنوف غيرها ، طويلة الجناح ، تقتنص الحشرات ، مستعينة باجنحتها ويقطن سهال اللابلاتا

---

(١) راجع كتاب صبح الاعشى مجلد ثان ص ٢٣٨

الحدباء التى قلما ينمو فيها شجرة ما ، نوع من ثقاب الخشب يقال له « الكولاپتس كمپسترس » Colaplés campestris له أصبعان اماميان ، يقابلهما أصبعان خلفيان ، ولسان مستدق فيه استطالة ، وريش ذيله طويل فيه كثافة وخشونة تساعده على التحليق مرتقياً أطباق الهواء فى خط عمودى ، ولكنه لا يبلغ من الكثافة مبلغ ريش الذيل فى بقية الأنواع ، ومنقاره طويل قوى . بيد أن منقار هذا النوع إن كان فى الواقع أقصر قليلا عن متوسط مايبلغ اليه طول المنقار فى أنواع الثقاب الرئيسية ، الا انه من القوة والمتانة بحيث يتمكن به الطائر من أن يثقب الخشب بسهولة تامة . ومن هذه الصفات الأولية التى نلحظها فى لون هذا النوع من ثقاب الخشب وخشونة صوته وطريقة طيرانه ، نساق ، كما يساق الطبيعيون عامة ، إلى الاعتقاد بان صلة من النسب تربط بينه وبين ثقاب الخشب العادى . وانى لعلى يقين بما بلوته من التجاريب ، لا بل بما نستخلصه من تجاريب « أزار » Azara ذلك البحاثة الكبير ، أن هذا النوع لا يتخذ من جذوع الاشجار وكناً له فى بعض البقاع المتسعة المترامية الاطراف ، بل يأوى الى بعض الشواطىء ويتخذ من الجحور بيوتاً يبنى فيها أعشاشه . ذلك فى حين أن مستر « هدسون » قد حقق لى أن هذا النوع عينه يثقب جذوع الاشجار ليتخذ منها بيوتاً فى المقاطعات الأخر . وان لنا من ذلك الضرب الذى يقطن سهول المكسيك « الكولاپتس المكسيكى » لمثالا آخر نظهر به الباحثين على حالة من حالات التغاير فى العادات التى نلحظها فى شتى الانواع التابعة لهذا الجنس إذ يقول « دەسوسور » De Saussure أن النوع المكسيكى — Mexcic an-colaptes — لا يثقب جذوع الاشجار الصلبة الا ليتخذ منها خزانة يخزن فيها ما يستطيع جمعه من حب البلوط » .

ومضى داروين بعد ذلك معدداً لكثير من المشاهدات التى تثبت نظريته مقتنعاً تمام الاقتناع بان تغاير العادات عامل ذو شأن كبير فى تكوين أنواع جديدة فى الطبيعة »

***

يذكر العلامة داروين انه « من الصعب على وجه الاطلاق أن نحكم فى أيهما يبدأ بالتغاير قبل الآخر ، أهى العادة ثم يتلوها التركيب العضوى متابعاً لها ،

أم هو التركيب العضوى الذى يبدأ بشىء من التهذيب الضئيل والتغاير غير المحسوس ، فيسوق الى تغاير العادة » ؟ ثم يمضى بعد ذلك مغلباً الظن بأنهما يتغايران معاً فى خطاً متكافئة . على ان القول ببدء التغاير فى التركيب العضوى ليسوق الى تغاير العادات ، أرجح من القول بتغاير العادة لتسوق الى تغاير التكوين ، كما انه أرجح من القول بأنهما يأخذان فى التغاير معاً . هذا اذا ذكرنا ان لفظ « العادات » يدل فى مباحث التاريخ الطبيعى على شىء مباين كل المباينة لما يدل عليه فى عالم الحياة الانسانية . فليس للحيوانات عادات اختيارية تعكف عليها كما هى الحال فى عالم الانسان . بل معنى العادات فى العالم العضوى يدل بدياً على صفات موروثة أقل ثباتاً فى طبائعها من الغرائز وأسرع تغايراً . فاذا أردنا أن نتخذ من هذه الحالة الخاصة التى شاهدناها مثالا نطبقه على هذه النظريات ، لما وسعنا الا أن نقول انه لابد من أن يكون فى تركيب هذه الكمية من أفراد « الموريدا » صفات أهلت بها الى القدرة على تغير عاداتها . فلو لم يكن فى رئتيها مثلا كبر يخرج بها عن القياس العام لما لبقية نوعها لما استطاعت أن تستقر فى عمق الماء أكثر مما تستطيع بقية الافراد . وكذلك الحال اذا لحظنا ما يتطلب صيد السمك من سرعة الحركة وحدة البصر فى ضوء القمر ، زاد اقتناعنا بأن فيها من التراكيب المستحدثة ما يجعل عكوفها على عاداتها الجديدة أمراً مستطاعا . على الضد مما اذا مضينا قانعين بأنه من الممكن أن يكون تغاير العادة عاملا على تغاير التركيب العضوى أو أن تغايرهما قد يقع فى آن واحد . وغاية ما فى مستطاعنا أن نذهب اليه هو أن العكوف على عادة جديدة قد يزيد فى استعمال تلك التراكيب التى تؤهل بالعضويات الى القدرة على العكوف على عادة جديدة ، فتنمو تراكيبها تلك بعد أن يكون قد انتابها نزر من التغاير الضئيل غير المحسوس ، ومن ثم تمتد يد الانتخاب الطبيعى وتلعب دورها فى ابقاء كل الافراد التى تتفوق على غيرها بصفاتها الجديدة ، وبذلك تحبوها الطبيعة بنعمة الغلبة على غيرها من الافراد ومن ثم تسير فى ذلك الدرب الذى ترسمه الطبيعة لكل الصور التى يقدر لها أن تسود فى هذه الحياة على غيرها فينتج تسودها أنواعاً جديدة فى عالم الوجود .

اليهودية

وكانت الآلهة تمشى على الارض تخاطب الناس عند ما بدأ تاريخ اليهود . وهم ينتسبون الى خليل الله ابراهيم ، وقد عبر الفرات تاركا أور الكلدان ، مهد المدنية فى ذلك العصر ، قاصداً أرض كنعان تلبية لأمر الرب

وجاء بعده اسحق ومن وراء اسحق يعقوب (اسرائيل) وإليه تنتمى الاسباط الاثنى عشر وأحد أبنائه يوسف الصديق الذى أطلقت يداه فى مصر فاستجلب اليها أهله وعشيرته وأنزلهم أرض غسان — قرب الزقازيق — فنشأت الحفيظه عليهم فى قلوب الوطنيين إلى أن بدت فرصة سانحة انتهزوها واستعبدوا الدخلاء حتى قادهم كليم الله موسى وخرج بهم منها بعد أن ضرب الله مصر ضربات داميات حوالى سنة ١٢٠٠ ق.م

وفى وسط صحراء سينا كما كانوا يقولون أو فى أرض فلسطين الجنوبية كما يرجح علماء اليوم ، تلقى موسى من ربه الواح الوصايا العشر زبدة الطورا (التوراة) كتاب الاسرائليين المقدس

ومات الكليم والقوم على وشك دخول أرض الميعاد ولما ولجوها لم يلبثوا حتى تألبوا على بعضهم البعض ثم اشتبكوا فى حرب مع من حلوا بينهم من الامم وما زالوا بين تقهقر وتقدم إلى أن استقوى عليهم طيطس الرومانى وشتتهم فى أنحاء الكرة الارضية .

ولا يملك المطلع على سيرتهم نفسه من الاشفاق على هذه الامة التى كان لها الاثر الاول فى تكوين فكرة التوحيد والقول بان الله واحد لاشريك له

وعلى الرغم من تشعب اليهود الى فرق لم يبق منهم حتى اليوم إلا ثلاثة أفرع هم : الربانون والقراؤون والسامريون ، ذلك بخلاف طائفة تسكن شواطىء بحر اليونان وتخلط اعتقادات الاسرائيليين بالاعتقادات الاسلامية ، نبغ منها أفراد كان لهم تأثير فى تقدم تركيا الحالى ومنهم جاويد بك وزير المالية التركية المشهور. وبما أننى لم أقف على مايصح الاعتماد عليه عن جماعة بحر اليونان سأقتصر على

المقارنة بين الطوائف الثلاث الأخر .

لايعد الربانون والقراؤون طائفة السامرة من اليهود . وفى نفس الوقت ترمى كل من الطائفتين أختها بالخروج على الدين ولا يتزاوجون من بعضهم بل كلاهما يعتقد أن أبناء عمومته أكثر نجاسة من اتباع الأديان الاخرى

السامرة (الشومريم) : وهم يقطنون مدينة نابلس من أعمال فلسطين ولا يزيد عددهم نساء ورجالا عن المائة الا قليلا ولهم مذبحهم ولهم توراتهم وليست أورشليمهم غير جبل غاريزيم القريب من موطنهم . وتوراتهم مكتوبة على جلود القرابين ويرجعون تاريخها الى أربعة وثلاثين قرناً ولكن العلماء المحدثين لايقدرون عمرها باكثر من ألف عام وبينها وبين التوراة المعروفة ما يقرب من أربعمائة خلاف فى حين لاتحوى لغتهم أربعة أحرف موجودة فى اللغة العبرانية وهى الالف والهاء والخاء والعين . وتنقطع صلة أنبيائهم بانبياء الطائفتين الاخرتين بعد يوشع . وصلاتهم كصلاة القرائين وهى تشبه صلاة المسلمين من ركوع وسجود وهم يغتسلون ويتوضؤون ويحجون ثلاث مرات كل سنه الى جبل غاريزيم . ويرجعون بنسبهم الى يوسف الصديق . ولكن الطائفتين الاخريين تتبرءان منهم وتلقبهم « كوتيم » نسبة الى مدينة كوتة البابلية حيث أتوا بعد الاسر البابلى وكذلك ترميهم الطائفتان الاخريان بانكار اليوم الآخر والبعث والنشور والجنة والنار والثواب والعقاب . ولكن المرجح ان هذا محض ادعاء

لايهتمون بالتلمود — وهم فى ذلك أقرب الى القرائين الذين يقل اهتمامهم به عن الربانين كما سنبين ذلك بعد — ولذا أوجدوا لانفسهم أصولا شرعية تبعد كثيراً عن شريعة الفرقتين الاخريين . ولايصرحون للرجل بزواج ابنة أخته أو ابنة أخيه مثلهم فى ذلك كمثل القرائين . ويقال ان السبب فى اتباع هذه العادة ان أحد الملوك وعد وهو فى الحرب من يتسبب فى النصر بزواج ابنته فكان أخوه هو الذى نال هذه الحظوة

يصلون مقتبلين جبلهم المقدس لابيت المقدس . وكذلك يقدمون ذبائحهم وهم متوجهون نحوه . أما عيد الفصح عندهم فستة أيام ولدى القرائين سبعة وعند الربانين ثمانية أيام .

الربانون (الربائيم) يكونون السواد الاعظم من الامة وينقسمون الى قسمين

السفرديم « العرب » والاشكنازيم « الافرنج » والفروق بينهما طفيفة شكلية تبحث فى الاوساط التى يعيشون فيها . فمثلا الافرنج لايعددون زوجاتهم بعكس الآخرين . وهم أقل تمسكا بالتقاليد العملية مثل شروط ذبح الحيوانات واقامة الصلاة التى يؤدونها بطريقة أقرب الى الصلاة المسيحية

ويتمسك الربانون أشد التمسك بقدسية التوراة والتلمود ويعدون الاخير وحيا أنزل على موسى ولكنه لم يكن مكتوباً ويكفرون كل من لايعمل باوامر التلمود حرفاً ومعنى وهذا هو أصل الخلاف بينهم وبين القرائين من جهة وبين السامرة من جهة أخرى ، وهم يعدون الاول ضالين . وأما الآخرون ففى نظرهم دخلاء فى الدين .

القراؤون (القرائيم) لايقدسون غيرالتوراة ويفسرونها معتمدين على الادلة العقلية فباب الاجتهاد أمامهم مفتوح على مصراعيه، بعكس الربانين القائلين بأنه أقفل الى ما شاء الله. ولايعتبر القراؤون التلمود أكثر من مجموعة أراء لمفكريهم القدماء يصح الاستئناس بها عند مقتضيات الاحوال

وتوجد اختلافات أخرى بين الربانين والقرائين أهمها :

١ — أخذ الربانين بالميقات الشمسى بدلا من القمرى المنصوص عنه كنتيجة لفتوى ظهرت على أثر خدع السامرة لهم باضاءة نار على رأس الجبل اخطأوها وحسبوها مطلع الهلال وهكذا يبررون تحولهم . وأما القراؤون فيحسبون على القمر ويعدون أبناء عمومتهم مخالفين

٢ — لايتشدد الربانون فى تفهم راحة السبت ولا فى تفسير قانون العين بالعين والسن بالسن

٣ — الربانون أشد من الآخرين تمسكا بالطهارة من الحيض وأقل منهم تمسكا بطهاره النفاس. ويصرحون بزواج الرجل من ابنة اخيه وابنة اخته وابنة امرأة ابيه . ولكن القرائين يقولون اذا صح ذلك وجب السماح للرجل بزواج عمته وخالته فيحرمونه

٤ — يرث الربانى امرأته ويغالى فى طاعة الكاهن . والطلاق سهل عليه وهو حق للرجل فقط . وأما الآخرون فلا يرثون نساءهم وهم أقل اهتماماً بالكهنة . والطلاق عندهم اصعب ، اذ له حدود ، وللمرأة عندهم حق طلب الطلاق بواسطة

رجال الشرع فى حالة ما اذا اباه الزوج عليها وذلك داخل حدود مخصوصة

٥ — يتم زواج الربانى بالوقاع أو بالعقد أو بالاشهاد ويوجب دفع المهر ولكنهم لايشترطون موافقة ولى أمر المرأة البالغ . واما القراؤون فيوجبون العقد المحرر مع المهر ورضاء الولى شرط لازم

٦ — الربانى قيم على مال زوجه. اما الاخرين فلزوجاتهم حرية التصرف فيما تملكن.

٧ — للربانى الاولية للتزوج من ارملة اخيه فاذا لم يتنازل عن حقه فيها عدت ناشزاً لايصح لرجل آخر الاقتراب منها على العكس من القرائين

٨ — شهادة الانثى لايعتد بها عند الربانين ولكن يأخذ بها القراؤون

٩ — غير مصرح للربانية المرتد زوجها بالزواج. وهى عند القرائين طالق منه يصح لها الانضمام الى غيره ويكتفون بمنع المرتد عن الارث

كتب اليهود المقدسة

كتاب العهد القديم كما يسميه المسيحيون والطورا كما يطلق عليه اليهود من باب التعميم ، هو كتاب اليهود المقدس كتب اغلبه بالعبرية والقليل بالآرامية (عزرا ٤/٨ الى ٦/١٨ و٧/١٢ الى آخر ٢٦ . إرميا ١٠/١١ دنيال ٢/٤ إلى ٧/٢٨) ويسند اليهود تحرير الاسفار الخمسة الاولى (الطورا الاصلية) الى موسى ولكن يدعى العلماء المحدثون ان الكتب الستة الأولى تكون وحدة ادبية لأن نسقها واحد

وينقسم كتاب العهد الى أقسام أربعة

١ قانون — تكون على ثلاث مراحل (١) قانون العهد وهو القانون البدائى يوجد فى الخروج ٢٠و٢٢ الى آخر ٢٣ و٢٤و٣ الى ٨ . و(٢) قانون التثنية ١٢ الى ٢٦ وهو أكثر ارتباكا من سابقه وعليه اشيد وكان توطئة للقانون الثالث (٣) قانون الكهنة اللاويين الذين ينسب اليهم وضعه ابان بناء المعبد الثانى

٢ تاريخ — يحوى سفر التكوين تاريخ خلق الارض والطوفان (١ — ١١) وقصص ابراهيم واسحاق ويعقوب (١٢ — ٥٠) وينسبه النقاد المعاصرون الى البابليين ويقولون ان فيه ينجلى تنازع مدرستين دينيتين تبادلتا قص القصص وكانت تتبع احداها آلها تسميه « ياهوا » والاخرى آلهاً اسمه « ايلوه » أما سفر

الخروج فيحوى قصة بنى اسرائيل بعد موت يوسف وما حدث من اقامة الخيمة فى الصحراء ونزول الوصايا العشر . وفى سفر اللاويين نجد نظاما تشريعياً وضع لبنى اسرائيل يحوى ارشادات عن الذبائح والعبادات وتكريس الكهنة وينتهى بارشادات عن القداسة . وسفر العدد يحوى انساب القبائل الاسرائيلية وقصة معسكرهم فى سينا والتيه ثم وصولهم الى أرض المآب « مؤاب » . والتثنية وهو آخر الكتب التى ينسبها اليهود الى موسى ويحوى كلماته الاخيرة وخبر وفاته ووصيته بان يخلفه يشوع . ثم كتاب يشوع وهو آخر الكتب الستة التى يدعى النقاد أنها تؤلف مجموعة أدبية واحدة ويحوى قصة فتوحاته لغرب فلسطين وتقسيمه للارض على الانحاذ . ثم يليه كتاب القضاة الذى ينسبه النقاد الى الكنعانيين ويحوى أخبار ثلاثة عشر حبرا مع كلام عن غزو اليهود لارض كنعان . فكتابا صموئيل وفيهما أخبار استيطان اليهود فى أرض الميعاد وتكوينهم مملكة وتنازعهم على السيادة . ثم كتابا الملوك وفيهما تتمة أخبار النزاع الداخلى وقصة سليمان . فكتابا الايام ويحويان قصة الخليقة مرة ثانية حتى عام ٥٤٩ ق . م . فكتاب عزرا وكتاب نحميا وفيهما تتمة التاريخ حتى ٤٣٢ ق . م . وكتاب راعوث وهو حاو لنقد الاصلاحات التى حاول البعض ايجادها . ثم قصة أستير وهى صحيحة كتبت على النسق الفارسى ويلى ذلك كتب تحوى أخبار أنبياء العهد الاشورى . وهم عاموس وهوشع واشعيا وميخا وصفنيا . فانبياء العهد الكلدانى وهم إرميا وحبقوق وحزقيا . ثم العهد الفارسى وهم حجى وزكريا وملاخى . ثم نبياء عهد الأوبة وهما يوئيل ويونان .

٣ سفر — ويتكون من مزامير داود وسفر أيوب الذى يقول النقاد إن أصله عربى .

٤ حكم — ويتكون من أمثال سليمان وكتاب الجامعة وكتاب دانيال ويعدونه أحسن ما كتب فى الكتاب المقدس

ولا تمالك وأنت تقرأ هذه الكتب من الشعور بلذة وانت تنتقل من عصر الى عصر تتصفح عقليات وتتصفح تاريخ مدنيات كانت على حالة الفطرة فارتقت الى مدنية زاهرة . وفى الكتاب ماهو فطرى وما هو مهذب ، فلا تصنع ولا رياء ولكن هى البوادر تسيطر كما هى

ونحن مدينون لمبشرى البروتستانت والكاثوليك بترجمة هذه الكتب المهمة

إلى العربية وقد وثقت من بعض اليهود ان الترجمة حقيقية يأخذون بها فى صلواتهم ويفضلون ترجمة البروتستانت

التلمود ومعناه المفسر . يدعى الربانون انه توراة شفهية كتبت فى القرن الثالث المسيحى « خوفا من النسيان ومن وقوع تحريف فى نصها » ويتكون التلمود من اسفار ستة تبحث فى الزراعه (١١ فصل) الاعياد (١٢ فصل) النساء (٧ فصول) الدية (١١ فصل) القرابين (١١ فصل) الطهاره (١٢ فصل) والتلمود مجموع كلى يطلقون على بعضه لفظة الجومارا او الجمرا او الجيمارا ومعناه التام . ويصبح هذا التام بدوره كلا يطلقون على بعضه المشنا او الثانى

وجمع التلمود الحالى من اصلين احدهما يسمى الاورشليمى والآخر البابلي والاول اقدم من الثانى وجدوا منه اربعة مواضيع فقط ، ثم عثروا على موضوع القرابين بين مخطوطات مهملة فيما بعد ، ولم يعثروا حتى الآن على موضوع الطهاره واما النسخة البابلية فقد عثروا على خمس مواضيع منها واما موضوع الزراعة فوجدوه قريباً وبذلك تكون قد تمت .

وفى النسختين بعض الاختلافات فى المشنا . واما النسخة الارشليمية ، فجوماراها ناقصة .

وقد اعتمدت فى كتابة هذه المقالة على دائرة المعارف البريطانية وعلى كتابى الاستاذ مراد بك « الربانين والقرائين » و « التلمود » وقراءة العهد القديم وكتاب « الكتب المقدسة » Literature واستأنست ببضع مذكرات أخذتها فى أوقات مختلفة من مصادر عديدة أخرى

عمر عنايت

العلم والآراء الحديثة

نريد بهذا المقال أن نلخص وننقل آراء العلماء الذين بحثوا مدى تطور العلم مع الافكار الحديثة .

تعريف العلم

ليس من السهل أن نضع تعريفاً دقيقاً للعلم وانما هو كما يقول العلماء طراز « System » من المعلومات مبنى على قواعد الملاحظة والاختبار ومكون بالتفكير والاستنتاج من الفروض الموجودة »

واذن كانت كل الآراء العلمية التى من هذا القبيل يمكن تحقيقها بواسطة البحاثين المختصين الذين يكررون الملاحظات والتجاريب ويجعلون منها موضوعا للتفكير المستقل الدقيق . ولهذا فالعلم هو شيء تحقيقى متداول ليس بشخصى ولا عاطفى . ولكن كل المباحث العلمية ليست فى مرتبة واحدة !!

فمثلا يمكننا أن نقول إن نظرية نيوتن هى علم تام ، الا ان تداولها محدود .

غرض العلم

ان وجود علم ما يتوقف على اختيار المسائل التى تبين عن شيء مخصوص وترك غيرها . فمثلا الباحث فى علم الحياة « البيولوجست » لا يعنى فى تحقيقاته بجمال المناظر . وكذلك الباحث فى علم الفلك فانه لا يهتم بروعة السماء وبهاء النجوم وهكذا

وانما غرض العلم أن يوجد ويقرر مبادئ واضحة ، غاية فى الدقة وفى البساطة ووافية دائما باكثر ما يستطاع . أو كما يقول ارستطاليس **Aristotle** « يبدأ وجود الفن » (ولنستبدلها بالعلم) متى أمكن ايجاد نظرية عامة من تجارب عديدة تضم تحتها كل الحالات المماثلة ، أو كما يقول الاستاذ «بونيتنج **Ponyting**» «اننا لا نقرر المسائل العلمية حين نعرف لماذا حدثت ، وانما حين نعرف كيف وقعت مماثلة لغيرها أو حين نقدر على أن نطبقها على قانون قد قرر »

ويقول الاستاذ كارل بيرسن «**Karl Pearson** » مثلا

« ان قانون الجاذبية هو وصف مختصر فى كيفية انجذاب كل ذرة فى العالم الى غيرها من الذرات الاخرى . ولكنه لم يقل لنا لماذا تتحرك هذه الذرات على هذا النمط. وانما هو يبين فى كلمات صغيرة العلاقة التى تشاهد بينها . وهو يحدد ويستنتج ويقرر النظرية العامة من مشاهداتنا الكثيرة » هذا هو غرض العلم الوحيد ! !

وأوضح وصف لذلك ماذكره العلامة « كيرخوف Kirchoff » عن غرض علم الميكانيكا فقال : « ... إنه يصف بدقة وفى أبسط بيان الحركات التى تحدث فى الطبيعة »

وأما اكبر الاخطاء وسوء التفاهم الذى قام ويقوم بين « الدين والعلم » أو بين « العلم والفلسفه » مثلا كما يقول البروفسور ارثر تومسون « فيرجع كله الى عدم فهم الغرض الذى يرمى اليه العلم من وضع قواعد للأشياء كما هى أو كما وجدت »

واذن ليس غرض العلم أن يشرح الاشياء وانما يقول هذه الحالة تخضع للقانون س مثلا ، أو أن يقول هذا نتيجة لذاك ! وعليه فهو لا يبحث فى سبب الاشياء ولا فى أغراضها ومعانيها !!

الطريقة العلمية

ان الدراسة العلمية لموضوع أو شىء ما تتطلب منزعا وطريقاً عقلياً خاصاً ربما لايكون وحده الطريق الصحيح ، فقد يوجد غيره . فمثلا النظر الى شىء ما من وجهة شعرية خيالية أو من وجهة عملية مادية بحتة قد يكون كلاهما صحيحاً. وانما الطريقة العلمية تتلخص فى أربعة أشياء

أولا — الميل للحقائق — وهذا يتطلب عقلية عالية ودقة وابتعاداً عن الرغبات الشخصية

ثانياً — الاحتياط التام فى الوصول الى نتيجة ما — وهذا يتطلب دوام التشكك فى الاشياء والابتعاد عن الحكم الشخصى

ثالثاً — حب الوضوح — وهو ما يتطلب كراهية التعقيدات والتوريات والنتائج المفككة

رابعاً — الدقة فى الحكم على علاقة الاشياء ببعضها — وبعض الاطلاع والمعرفة لامكان التفريق بينها

لانه اذا كانت المعلومات فى مبدئها ولم تستقر بعد ، فليس من ريب فى أن يحتلها الشك ، ولأن الباحث يجب أن يجعل وجهته المسائل الصحيحة الثابتة التى لاشك فيها .

طرق العلم

إن الخطوة الأولى فى كل المباحث العلمية هى تعرف الحقائق . وهذا يتطلب الاتقان والصبر وعدم التحيز والحذر من الوقوع فى خداع المشاعر والذهن والعناية فى عدم الخلط والاستدلالات والملاحظات . والخطوة الثانية هى الدقة فى مدوين الفروض والمقدمات لأن أغلب المسائل العلمية تبدأ بالقياس ، كما قال اللورد كلفن Kelivn — « ان كل الاستكشافات العلمية العظيمة لم تكن الا نتائج لدقة القياس والجلد على العمل الدائم فى استنتاج النتائج العديدة واستخلاص أصحها وأقواها »

والخطوة الثالثة هى ترتيب الفروض والمقدمات فى شكل عملى مثل تلك الخطوط المنحنية والمنكسرة التى نشاهدها فى الكتب العلمية والتى بمجرد نظرة واحدة إليها نعرف الكثير مما تعبر عنه .

كما يجب وضع تلك الفروض فى أبسط وضع مع غيرها من الفروض التى نريد المقارنة بينها .

والخطوة الرابعة هى انه متى تمت حوادث كثيرة ذات شكل واحد أمكننا أن نوجد قاعدتها العامة . وقد يكون ذلك من نظرة واحدة وبعد محاولات عديدة

فمثلا ان نظرية الجاذبية التى قررها نيوتن بناء على سقوط التفاحة هى بعينها التى يخضع لها انجذاب القمر الى الارض ؛ وان نظرية الذرات اليوم هى نتيجة المباحث العديدة السابقة والمشاهدات الكثيرة المختلفة !!!

ان كل قوانين الطبيعة التى أبانتها الانسان ما هى الا نتيجة لتسلسل وتتابع الاشياء التى أمكنه أن يقررها . مثلا انه اذا وجد هذا كان ذاك . وهكذا

ان هذه القوانين ليست من درجة واحدة فهى تختلف فى تحديداتها وفى دلائلها ، وأكثر من ذلك ، فان معانى ألفاظها واصطلاحاتها غالباً ما تتغير مع مرور الزمن . لأن العلم ليس انسانيا فقط ، وانما له صفات مثل صفات البشر

Anthropomorphic فقد تظهر عليه آثار الهرم والكبر الاجتماعى

فمثلا فى علم الحياة Biology ذلك العلم الذى لم يستقر بعد كغيره ، نجد أن نظرياته مثل نظرية « التنازع على البقاء » مأخوذة تقريباً من مسائل الانسان وتنازعه هو وغيره .

ان العلم لا يبحث فى المسائل الواقعية دائما ، الا أن أولئك الذين يبالغون فى يقينيات العلم ويقررون ان الحقائق العلمية هى من منتجات العقل فقط وليست خارجة عنه ، يخطئون فى فهم الحقائق العلمية . لأن ما يقرره الفلكى مثلا من أن نجما سيعود الى الظهور فى يوم كذا ، يرينا ان العلم يتقدم نحو معرفة الحقائق الخارجية أيضاً .

مدى العلم

هناك الكثير الذى يمكن قوله عن استعمال كلمة العلم ووصفها بصفة أخرى. مثل علم الطبيعة وعلم الكيمياء وعلم التاريخ الطبيعى وعلم الحياة وعلم الاجتماع وغيرها ، لأن هذه العلوم الكثيرة تختلف جدا عن بعضها وفى درجة دقتها واحكامها وفى استقرار نظرياتها . ولأننا حين نترك علم الطبيعة والكيمياء لنبحث فى دراسة الكائنات الحية وعملها ، ثم نتركها لنبحث فى دراسة الجماعات الانسانية والعلاقات بينها ، نجد أن هناك فارقا كبيراً بين دقة النظريات والمبادئ التى يأتى بها كل علم من هذه العلوم المختلفة ، وفى الوقت نفسه نجد أن الطرق والمبادئ والقواعد التى قررتها هذه العلوم بالنسبة للمسائل المادية قد تقدمت تقدما كبيراً عنها فى المسائل الخاصة بعلم الحياة، أو الاجتماع الخاصة بالانسان. وهكذا ليست كل العلوم واحدة فى المدى الذى وصلت إليه

تقسيم العلوم

هناك ثلاث مسائل يعنى بها العلم . الاشياء . والاجسام العضوية . والانسان. أو الـ Cosmosphere والـ Biosphere والـ Sociosphere فعلم الكيمياء والطبيعة وتختص ببحث المادة والنشاط فى العالم المادى . وعلم الحياة يبحث الحياة فى الاجسام العضوية . وعلم الاجتماع ، يبحث فى الجماعات الانسانية ، ودراسة

الشعوب وكذلك نرى ان الكيمياء والطبيعة متصلان ببعض وان علم الحياة والنفس يبحثان عن وجهتين من وجهات النشاط فى الاجسام الذى نسميه الحياة . وعلم الاجتماع يبحث فى تطور الجماعات ونظمها المختلفة وصورها المتعددة

ويضع الاستاذ طومسون العلوم الخمسة الرئيسية هكذا : —

الاجتماع	النفس	الحياة	الطبيعة	الكيمياء
Physics	Chemistry	Biology	Psychology	Sociology

فنجد أن علم الحياة يأخذ المكان الوسط بينها وهو يقوم من جانب على علمى الطبيعة والكيمياء بنظرياتها وطرقها المستقلة ومن جانب آخر على علمى النفس والاجتماع

وكل من هذه العلوم الرئيسية تضم تحتها علوماً أخرى .

فعلم الحياة يتضمن علم النبات Botany وعلم الحيوان Zoolôyg وعلم الطبيعة يتضمن كثيراً من الفلك ، كما يتضمن علم الكيمياء كثيراً من علم المعادن Mineralogy

ثم هنالك العلوم المختلطة الاخرى مثل علم البحث فى طبقات الارض Geology وعلم الجغرافيا وعلم البحث فى أصل الانسان Anthropology وهى تستعمل طرقا ومبادئ مستمدة من بعض العلوم الاخرى للوصول الى أغراضها الخاصة

فمثلا علم الجغرافيا يتضمن أربعة أو خمسة علوم أخرى للوصول الى تقرير مبادئه الخاصة به

وهنالك العلوم التطبيقية الاخرى Applied sciences وهى التى تستخدم العلوم العامة السابقة للوصول الى أغراضها الخاصة كتلك المختصة بالفنون Arts وبالصناعات Crafts مثل علم الزراعة Agricultural science وعلم الطب Medicine وعلم الهندسة وعلم التربية الحديث

وهذه العلوم تطلق عليها كلمة « علم » تسامحاً لانها فى الواقع كما يقول العلامة هكسلى Huxley « انها ليست الا تطبيقات للعلوم الاساسية الصحيحة للوصول إلى تقرير نظريات خاصة تفصيلية . »

ولكن هناك من جهة أخرى هى العلوم المادية البحته Abstract التى تبحث فى العلاقات الضرورية بين الآراء أو الفروض المجردة وبين بعضها بغض النظر عما تحويه من المعانى .

وهذه العلوم استقرائية دائما وليست استنتاجية نظرية كما أنها ليست اختبارية

تبحث فى الطرق ولا تهتم بالملاحظات ، وأهمها علم الرياضة والاحصاء والرسم والمنطق. وبعض العلماء يعتبر العلوم العقلية **Metaphysics** أيضاً من ضمنها وعليه فتكون هذه العلوم حسب تقسيمها وما يتفرع فيها كما يأتى :

العلوم				
المادية البحته **Abstract**	العامة	الخاصة	المختلطة	التطبيقية
العلوم العقلية	علم الاجتماع	علم البحث في أجناس البشر	علم التاريخ	علم الاقتصاد
	علم النفس	علم الجمال الفن النحت والموسيقى والشعر	علم البحث فى أصل الانسان	علم التربية
علم المنطق	علم الحياة	١ علم الحيوان ٢ علم النبات	علم البحث فى تاريخ الحياة **Biosphere**	علم الطب
طرق الاحصاء والرسم	علم الطبيعة	١ علم الفلك ٢ علم الموازين والمكاييل Meteorology	١ علم الجيولوجيا ٢ علم الجغرافيا	علم الهندسة
الرياضة الحساب والجبر والهندسة	علم الكيمياء	علم المعادن	علم البحث فى تاريخ الدورة الشمسية **Solar-systiM**	١ استخراج المعادن وصناعتها **Metalluryg** ٢ علم الزراعة

فى نظرنا إلى مثل الجدول السابق للعلوم يجب أن لاننسى انها جميعا لاتختلف فى موضوعاتها فقط وانما تختلف فى طرقها وأغراضها أيضاً . فقد يبحث الموضوع الواحد فى علوم مختلفة. فالجسم الانسانى مثلا يبحثه علم الطبيعة والكيمياء كما يبحثه علم الحياة . وكذلك الفرخ أو الطير الصغير يمكن دراسته من وجهات مختلفة. يدرس من وجهة علم التشريح وعلم الفسيولوجيا (وظائف الاعضاء) وعلم الامبريولوجى (البحث فى تكوين الجنين) وعلم النفس ، وحتى بعد كل هذه الدراسات المختلفة لانكون قد ألمنا تماما بحالة ذلك الفرخ الصغير تماما .

فالعلوم هى أجزاء من مجهود واحد لفهم نظام الطبيعة وطريق الحياة فيها وهى تتدخل فى بعضها وهى تنجح اذا عملت معاً يداً واحدة لتحقيق الحقوق المشتركة وتحديدها !

فمثلا ان علم الكيمياء والطبيعة لا يمكنهما أن يعلمانا كيفية الحياة فى عود القمح مثلا إلا بمساعدة العلوم الاخرى !!

وكذلك الكيميائى الماهر لايستطيع أن يعرفنا كيف تقفز القطة مثلا وانما يجب الالمام بعلم الحياة وغيره ، لنعرف ذلك

وعليه فتضامن العلوم كلها لازم لمعرفة الحقائق فى العالم أو كما يقول العلامة ارثر طومسون .

« هناك تناسب وتوافق بين العلوم ، لكن ليست هناك وحدة بينها »

ولنكتف بهذا القدر اليوم وانما لنلم بالموضوع الماما وافياً بقى علينا أن نبحث رأى العلماء فى تحديد وحصر تلك العلوم ثم العلاقة بين العلم والشعور وبينه وبين الدين وبين الفلسفة وبين الحياة وموعدنا المقال التالى .

كامل البهنساوى

الحق

أرى الحق لاعلم جلاه ولا عقل ... أدلته ظن يساوره جهل
ولكن آلام الشكوك دوافع ... إلى ثقة فيها عن الريب الشغل
وإن بنا شوقا الى الحق واضحا ... فما لم يضح كالشمس فهو أذن ختل
لذلك كانت دعوة الرسل دونها ... ودون اليقين المحض ما يبغض الرسل
وكفر، على أن الجحود مضلة ... وشك، على أن الشكوك هى الخبل
ومن يدر علّ الأنبياء تكذبوا ... وما الأصل فيما بلغونا هو الأصل
وناضلنا بالسيف منهم مناضل ... وفوق الذى قالوا لنوقنه مدل
ولم أدر لم يؤتنا الله قدرة ... على أن نرى الحق الذى نكره زل

عبد اللطيف ثابت

فى الثورة الفرنسوية

مظاهرة النساء يومى ٥و٦ اكتوبر سنة ١٧٨٩

إن كانت عاطفة الشفقة هى التى جرت النساء الفرنسويات إلى الثورة ، فان دافعاً آخر لايقل عن دافع العاطفة فى احداث الثورات أثراً ، دافعاً أشد ما كان تأثيراً فى نساء فرنسا ذلك الدافع الاقتصادى ، دافع الخبز والادام ، هو الذى جرهن الى غمار الثورة ورمى بهن فى احضانها الملتهبة .

فلاعجب اذا رأينا نساء باريس ليلة الثورة يحتججن لدى الملك لويس السادس عشر على اغتصاب الرجال لحرفهن ومتاجرهن إذ قلن فى عريضتهن اليه : « لو ترك لنا الرجال الابرة والمغزل استطعنا أن نترك لهم الفأرة والمخراز » .

إن دافع الخبز والادام هو الذى دفع النساء الى القيام بتنظيم المظاهرات والزحف على قصر فرساى يومى ٥و٦ اكتوبر ، ذلك الزحف الذى يعد ثانى هبة جدية من هبات الثورة . فقد قال « دهجونكور » ان الجوع كان أول مأساة من مآسى تلك الثورات المزعجة .

ومهما يكن من أمر فان المحقق أن مظاهرة اكتوبر كانت مظاهرة الفاقة والسغب . وكانت هذه مشكلة احدى تلك المصائب التى خلفها لفرنسا لويس الخامس عشر . ولقد حاول تيرجو أن يعالج المسألة بوضع نظام يشابه حرية التجارة وحاول نيكر أن يعالجها بنظام الحماية ، فلم يفد شئ من هذا ، وزادت قلة الغلة الحالة سوءاً .

كان الناس يظلون أمام حوانيت الخبازين صفوفا بعضها يتلو بعضاً طوال ساعات الصباح ، على الرغم من أنهم كانوا يممون شطر تلك الحوانيت قبيل الشفق ولقد اتهم المستثمرون الذين يعملون على تكثير أموالهم فى أمثال تلك الظروف بانهم كانوا يخزنون الحب أكواما فى مخائبهم ، ويضنون بتوزيعه على الجمهور فى باريس . ويقال بان رجال الكنيسة كانوا يرشون أصحاب المطاحن ليمتنعوا عن طحن الحب .

سأل أجنبى يوما زوجة عامل من فقراء باريس : « كم ثمن الرغيف من الخبز

عندكم » . فكان جوابها — « ثلاثة فرنكات واثنى عشر صلديا ثمناً لرغيف زنته أربع أوقيات » .

ان هذه القيمة تلوح غير معقولة . غير أنها على هذه الصورة وضعت جوابها على السؤال . ولم تقصد من قولها هـذا الا أن الرغيف الذى يزن أربع أوقيات يساوى اثنى عشر صلديا ، غـير أن زوجها كان مضطراً لان يظـل منتظراً أمام حانوت الخباز طول يومه وبذلك يفقد عمل اليوم الذي كان ينقد من أجله ثلاث فرنكات . وبذلك يكلفهم الرغيف ثلاث فرنكات واثنى عشر صلديا .

لما بدأ عدم الثقة بالملكية يساور قلوب الناس ، صحبها كثير من مختلف ضروب الشك القاتل والريب المؤلمة . وكثرما اتهمت الحكومة بانها تأمر بتصدير القمح وباستيراد خبز مسمم يباع بمثله ذهباً . على انه اذا استعدت العقول للاعتقاد بصحة مايشاع ، فلايكون هنالك من حائل دون وقوع أى حادث مهما كانت شدته ومهما بلغت صرامته .

ان ثورة اكتوبر قد تلوح من جهة كأنها ثورة مدبرة ، وقد تلوح من جهة أخرى كأنها وقعت اتفاقا . لقد ظل السياسيون بضعة أسابيع يحضون الناس على الزحف على قصر فرساى ليطلبوا من الملك ومن الجمعية ايضاحا عن السبب فى ندرة الطعام . ويقال بان اولئك المهيجين قد نصحوا للنساء فى حدائق « الباليه رويال » علانيـة بان يستدرجن الجمهور الجائع للاشتراك فى الزحف . وقيـل فوق ذلك بانهم رشوا النساء ليشتركن فى ذلك الامر ، بل انهم قد اتهموا باغراء رجال على أن يتزيوا بزى النساء بلوغاً الى هذا المرمى .

على أنك لو نظرت من جهة أخرى ، لوجـدت أن السبب المباشر الذى أقام تلك المظاهرات لم يكن مفتعلا . ومما لاشك فيه أن ذلك السبب كان مسألة نسائية سببها أن خبـازاً فى حى « سان ابوستاش » كان يحتـال على الناس ويطفف فى موازينه ، فكان يبيع الرغيف الذى يزن أوقية وتسعة دراهم باعتبار انه يزن أوقيتين . ولم يخلص هذا الخباز من الموت الا بشق الأنفس ، ولولم تغثه فصيلة من الحرس الوطنى ، لشنق فى اقرب مصباح من مصابيح الشوارع . ولقد أسرع به إلى « الاوتيل ده فيل » متبوعا بجموع من نساء حى « سان ابوشتاش » ولقد شاع خبر هذه الحادثة فى أحيـاء العمال بسرعة البرق ، وانتشر بينهم انتشار النار

فى الهشيم . وسرعان ما اجتمع فى ميدان « ده جريف » جمهور صاخب غاضب أحاط بالاوتيل ده فيل .

اقتحم هؤلاء الصاخبون طريقهم إلى داخل البناء ، ويقول البعض ان النساء أردن أن يقمن بذلك العمل وحدهن ، رافضات أن يستعن بأحد من الرجال . غير أن الرجال استقووا على فتح باب من الابواب . وهنالك سادت فوضى مزعجة ، حاولت امرأتان بيد كل منهما مشعل متقدة ناره أن يلهما محفوظات دار البلدية للنار . حين ذاك أوحى الى « ستانسلاس مييار » أحد حجاب محكمة « شاتيليه » بان يصيح فى ذلك الجمع صيحة أنقذت دار البلدية . ولكنها أدت الى ماهو أدهى من ذلك وأمر . صاح بهم « هيا إلى فرساى » ممسكا بين يديه طبلة كبيرة يضرب عليها ضربا شديداً . وكان يتقدم الجمع بقامته الطويلة مرتديا حلة سوداء زرية المنظر . وانحدر ذلك الرجل من سلم دار البلدية صائحا باعلى صوته « إلى فرساى ، إلى فرساى » . وأخذ الجمع بهذه الفكرة فسرت فيه سراعا ، حتى انه نسى دار البلدية وذلك الخباز المحتال معا .

هنالك تساءل الناس : اليس الملك مسؤولا عن سبب هذه الفوضى وذلك القلق ! أليس هو الشخص الوحيد الذى يجب أن يطلب منه الخبز ؟ وماذا كان يفعل الملك فى قصر فرساى محتمياً وراء حرسه الفلمنكى ؟

اليس من واجبه أن يكون فى باريس بين شعبه الذى يكاد يموت جوعا ؟ اذن يجب أن يعود الملك الى باريس ، وواجب على ربات الحجال أن يعدنه اليها .

مشين زرافات واسرابا من رصيف النهر مارات باللوفر وحدائق التويلرى ميممات شطر فرساى ، وكان يغشاهن رذاذ يتساقط وضباب ينتشر فى صبيحة كل يوم من أيام شهر اكتوبر الندية . ولم يكن عددهن يتجاوز لدى أول المسير الخمسمائة . غير أنه انضم إليهن ما لا يقل عن عشرة آلاف من النساء المتظاهرات .

حصل حينذاك ما يحصل فى كل مظاهرة . كان بينهن متظاهرات جديات تطلعن للوصول الى غاية محدودة وغرض معين . كذلك كان بينهن أولياء الصاخبات اللائى يشتقن الى احداث الشغب ، وهن على أمل فى أن يجنين من ورائه نفعاً . وكان من بين المتظاهرات الجائعات ربات منازل وتاجرات فى أسواق القديسة كاترين والقديس بولص ، وعاملات ومطرزات وبائعات أزهار ، وبلا ريب بغايا من نساء الشوارع

اقتادهن « ميبار » يتقدمهن بطبلته ، رافعاً أمامه علماً تدلت من جوانبه كفتا ميزان ذلك الخباز المنكود الحظ . ومن ثم تبعه النساء مسلحات بأسياخ الحديد وأيدى المكانس ، وبكثير من الادوات ، بلا تفريق بين آلات الحراب وأدوات السلم ، اذا ما استطعن حملها . ولقد انضم إليهن جموع من الجماهير خلال سيرهن . أما المسالمات فقد حملن على الاشتراك فى المظاهرة ، بحيث أنهن لم يكدن يبلغن « سيفر » حتى بلغت مظاهرة الخمسمائة مبلغاً من العظم حمل الرسل على العدو إلى الجمعية الوطنية يحملون خبراً محصله أن باريس قد زحفت على فرساى . ولما وصلت الاخبار الى الملك لويس السادس عشر قفل مسرعاً الى قصره ، وكان يتلهى بصيد الوحوش فى غابات « ميودون » كما كانت عادة آبائه .

هنالك كان الملك عند ما وصلت تلك القطعان المنهوكة قصر فرساى حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر ويممت شطر « الاوتيل دى مينو بليزير » حيث كانت الجمعية الوطنية ملتئمة . ولقد نجح «ميبار» فى أن يحصل على إذن هو وخمسة عشرة من رفيقاته المتظلمات لكى يبث الشكاية .

دخل « ميبار » وعن يمينه امرأة وعن شماله أخرى . وكانت إحداهما تحمل سيفاً مصلتاً . وتحمل الاخرى فريع شجرة كان فى نهايته شىء مستدير لم يستبن احد ماهو . وجائز أن يكون طبلة صغيرة أو صورة تمثل شيئاً لم يتيسر تمييزه ، أو كفة من كفتى ميزان ذلك الخباز الذى مر ذكره .

ولقد نجح « ميبار » بعد جهد وشدة فى أن يقنع بقية الجمع بأن يظل منتظراً خارج الابواب . غير أن ذلك الجمهور المختلط فقد الصبر وشيكا ومل الانتظار معرضاً لقطرات المطر المنهمل . وتساءل الجمع عما حصل لمندوبيه ، هل جرعن السم ؟ أما بعض اللائى تملكهن حب الاستطلاع فقد حاولن أن يقتحمن الباب ، وتبعهن الاخريات . وازدحمت الردهات بسرعة . أما فى قاعة الاجتماع فان نساء من البائعات فى الاسواق ناشرات شعورهن وثيابهن تقطر ماء ، قد احتللن المقاعد المعدة لجلوس النواب . وهنالك صفقن لميبار وهو يطلب تسريح الحرس الفلمنكى المبغوض من فرساى ، لأن الحكومة ببقائه تضطر الى أن تقيت الفى فم فى زمان ندرت فيه مواد الطعام . غير أنه لم يكد يبدأ احتجاجه على غلاء ثمن الخبز واستحالة الحصول عليه من غير أن يظل الناس وقوفا صفاً منهم يتلو

حبتها بخارج حوانيت الخبازين ، حتى تبادر إلى ربات المنازل الواقفات فى الردهة أن فى مستطاعهن أن يبلغن من شرح ذلك الامر مبلغاً يخرج عن طوق ميبار. ولما أدركهن الاعياء فى أن يبقين مضغيات لامتكلمات ، اندفعن إلى القاعة وكلهن يتكلمن فى وقت واحد ، صائحات بأن الجمعية يجب أن تحدد ثمن أوقية الخبز فتجعله صلدين ، وتجعل ثمن الرطل من اللحم ثمانية صلادى .

تبع ذلك أن دخل على ذلك الجمع شيء من الطمأنينة والرضاء عند ما وصل فى الساعة الثامنة مساء رسول هو الدكتور « جيوتين » ليعلن إليهن أن أحمالا من القمح ستصل إلى باريس فى أقرب حين . وعند ذاك قفل ميبار وستون من أكثر تابعاته المتظاهرات هدوءاً واحفظهن للنظام عائدات إلى منازلهن . أما بقية الجمع فلم يلبين داعى العقل والرشاد ، ولم يلبثن الا قليلا ، حتى تركن الكلام فى مطالبهن الحقة من تخفيض ثمن الخبز والادام ، وطفقن يشتمن الرجال بأقذع ألفاظ السباب ، وهنا انسحب عدد كبير من المتظاهرات . ولما دخل الرئيس « مونييه » إلى القاعة فى الساعة العاشرة ألفى هنالك عشرة من أعضاء المجلس ومن حولهم خمسمائة امرأة ، احتلت إحداهن وهى طويلة القامة هائلة الهامة ، كرسى الرئيس وأخذت تدق بجرسه دقا شديداً مفزعاً . وكان مونييه قد ترك المجلس مبكراً صبيحة ذلك اليوم ليقدم الى الملك وفداً من المتظاهرات .

استقبلهن الملك فى الحجرة الشهيرة بحجرة الساعة . أما عددهن فقد اختلف فيه . فمن قائل انهن لم يتجاوزن الخمسة . وآخر يقول بأنهن كن اثنتى عشرة . ولكن كل ثقاة المؤرخين مجمعون على أن فتاة جميلة لا تتجاوز السابعة عشرة من عمرها كانت بطلة الموقف . وكان اسمها « لويزين شابرى » . أما صناعتها فبائعة أزهار ، أو صانعة تماثيل ، أو كلا الأمرين معاً

ولقد ذهب بعض المؤلفين إلى وضع محاورتها مع الملك أو على الأقل تخيل ما وقع من المناقشة بينهما . ومهما يكن من أمرها قالت فى ذلك اليوم فان المحقق أنها لم تتكلم فى السياسة حينذاك . ولكنها والملك لم يلبثا الا قليلا حتى تصارحا فيما قالا .

ظهرت تلك الفتاة بكامل جمالها وفتنتها . وانطلق لسانها يفيض فصاحة حتى أنها لما أرادت أن تقبل يد الملك قبل انصرافها ، قبلها الملك من وجنتيها قائلا لها « إنك تستحقين هذه القبلات » .

ان قبلات الملك التى طبعها على وجنتى « لويزين شابرى » قد قلبتها الى نضيرة من نضيرات الملكية المغاليات . والظاهر أن هنالك رواية أخرى يمكن أن يوثق بها : يقال أن خطيبة المندوبات قد أخذت بمثولها بين يدى الملك لويس السادس عشر إذ هو فى أبهته المعروفة ، ولم تكد تتمتم بكلمة « الألم » حتى انتابها اغماء عميق لم تفق منه الا لتجد نفسها فى موقف أقل من موقفها الاول أخذاً بمشاعرها ، وجدت نفسها لا تزال محوطة برفيقاتها المندوبات ، ولكنها فى أحضان الملكة تجهو عليها وتعنى بها .

ومهما يكن من أمر هذه الحسناء ، فان الوفد قد نجح فيما أراد ، فان سرور المندوبات باستقبالهن فى القصر ووعود الملك لهن ، قد أطلق ألسنتهن بالدعاء للملك فخرجن صائحات « ليحى الملك » غير أن رفيقاتهن اللائى مضين فى انتظارهن قلقات مضطربات معرضات لرذاذ من المطر فى « البلاس دارم » قد داخلهن شىء من الضجر ، لا من الغيرة

ولما سئل المندوبات عما إذا كن قد أخذن عهداً كتابيا ؟ اعترفن لرفيقاتهن بأنهن لم يأخذن من شىء سوى جرعات من الخمر الجيد مشفوعة بتحيات الملك وكلماته العذبة . وهنا انبعث فى بعض رفيقاتهن ضرب من الهياج المفزع ، فاقتلعن أحزمتهن وكدن بلا ريب يعلقن المندوبات فى مصابيح النور لولا أن تدخل بعض الرفيقات المتعقلات فى الأمر ، ولو لم يعاونهن المارشال « دولوجى » إذ استاق المندوبات إلى القصر مرة أخرى لفرط خوفه عليهن . وسمحت مكارم الملك أن تنقذهن من مثل مخاطرتهن هذه مرة أخرى فأصحبهن بورقة كتبها بخط يده وقد وعد فيها بأن أحمال القمح الذى سوف تمير باريس والتى يظن بأنها مخزونة فى لانيي وسانليس سترسل بأقصى سرعة الى العاصمة ، وانه سيقوم بتدبير الوسائل الضروريه التى تضمن تموين المدينة

ولما أن تزود المندوبات بهذه الوثيقة سمح لهن أن يعدن الى رفيقاتهن آمنات إما رئيسة المندوبات « لويزين شابرى » ومعها ستون من أكثر رفيقاتها المتظاهرات احتراماً ومنزلة ، فقد عدن فرحات جذلات الى باريس مستقلات عربات هيأها لهن البلاط . ولقد أجبن رجال البلاط بذلك صنيعاً لأن اثنتين أو ثلاث من المتظاهرات كن قد أصبن باضرار بليغة بسبب مشاجراتهن خارج القصر

كانت « لويزين » أول من وصل باريس ، فبلغت الاوتيل ده فيل فى الساعة الثانية من الصباح ، وتبعها جموع كن يصلن الى باريس فى فترات متفرقات . أما هيبار فقد وصل فى الساعة الرابعة ، حاملا وعود الملك مكتوبة بخط يده وسلمها الى عمدة باريس مسيو « بيلى » أما النساء فكن متعبات فقد أخذ منهن الجوع والوصب ، وبدأن يسألن عما يسد رمقهن ، فأعطين طعام العشاء أو بالاحرى الافطار ، من لحم وخبز وأرز ، فى حجرة مجاورة لحجرة المجلس البلدى .

أما الصاخبات المجرمات فبقين فى فرساى ، وأمضى كثيرات منهن الليل فى قاعة الجمعية ونام فريق منهن فى الاصطبلات ، فى حين أن غيرهن قد توغلن الى مطابخ القصر . وفى الساعة السادسة من الصباح تعالت أصواتهن المزعجة فاخترقت ممرات الحديقة الى حجرة الملكة . وليس من شأننا هنا أن نتناول بالكلام تلك الحوادث المزعجة المحزنة التى وقعت أثناء الساعات القليلة التى تبعت ذلك . لأن النساء لم يأخذن بضلع فيها ، ولو أنهن كن ممتزجات بالجمهور المعادى الذى قام بها

كن قبيل الظهيرة فى القاعة الرخامية ، عندما خرجت الملكة إلى الشرفة ، بعد أن نجت من الموت بيد الرجال صدفة . وفى منتصف الساعة الاولى ليلا بدأ جمعهن حاملا لواء الظفر يتحرك نحو باريس ، لأنهن كن قد أتممن مأموريتهن ، ولم يكتفين بأن يصطحبن ستين مركبة محملة قمحاً ، بل أحضرن معهن الخباز وزوجه وولده ، أى الملك والملكة وولى العهد .

وكان الجمع لا يزال غفيراً الى تلك الساعة . ولكن منظرهن كان مختلفاً عنه بالأمس . كن إذ ذاك ممونات لامتظاهرات . كن غازيات لاصاخبات مهيجات كن يقلن إن « أباهن الطيب » ، كما كن يسمين الملك ليس بماهر ، ولكن زوجه ، السيدة النمسوية ، وكن يكرهنها ، تتلاعب به وتخدعه عن شعبه ، وان واجبهن ، واجب نساء باريس الطيبات الخيرات ، أن يسهرن على الملك منذ ذلك الحين ، ولذا ظهرن فى أحسن مظاهرن ، جذلات فرحات . وقد استبدلن أسياخ الحديد وأيدى المكانس التى كن يحملنها فى بدء مظاهرتهن بأغصان الاشجار ، وقد ربطن بها شرائط قرمزية اللون ، كانت منذ ساعة واحدة تزين شعور نساء البلاط فى فرساى . وكثيرات منهن كن يلبسن القبعات الكبيرة والدروع الخاصة بالحرس الملكى ، وركب بعضهن فوق عربات المدافع ظاهرات بمظهر المحاربات . وقد

أخذن الملك والملكة سائقات بعربتهما. وسط جموع غفيرة من الناس تموج بها الشوارع الى الاوتيل ده فيل ومضت سبع ساعات قبل أن تصل عربة الملك الى هنالك

على أن ظهور الملك على شرفة الاوتيل ده فيل لم يقنعهن . وفضلا عما عبر عنه الملك من امتنانه وفرحه لوجوده فى وسط شعبه المسالم الخاضع فان هذه الجموع لم تشأ أن تنصرف الى مآويها قبل الساعة العاشرة من المساء ، بعد ان سيق الاسيران الملكيان الى قصر التويلرى الذى أصبح سجناً لهما .

***

كان المتظاهرات من طبقتين متفاوتتين . أما الطبقة الأولى فكان منها بائعات صاحبات حوانيت قديمة . وكن لذلك ذوات منزلة رفيعة . وهذه الطبقة كانت تحترم فى العهد القديم السابق على عهد الثورة ، بل كان الاشراف يبجلنهن ، وكان الملك يستقبلهن فى أيام الاعياد ، ويتقبل منهن باقات الزهر التى كن يهدينها اليه ، وينصت الى لهجتهن المشوبة بالعامية ، وكان يحتفظ لهن بمقاعد خاصة فى حفلات الزينة الملوكية .

وأما الطبقة الثانية فهن النساء الخشنات السارحات فى الاسواق العاطلات عن العمل الجائعات المتسولات . وكن يدعين « بالخليعات السكيرات المتسترات بستار الحرية » ، وقد القين بانفسهن مغامرات فى أحضان الثورة ، فاشتركن فى كل مايخل بالنظام ، ولم يتأخرن عن ارتكاب كل فظيعة من فظائع تلك الايام . وكانت شوارع باريس تموج بجموعهن ، وكثيراً ما كن يمشين زرافات الى حدائق التويلرى ـ « زائرات كانهن لبؤات فقدن أشبالهن » ـ أما شرفات دير « فوييان » ومقاعد قهوه « هوتو » فكانت مباءتهن ، وكنت لاتشم منهن من رائحة الا رائحة الخمر تنبعث الى أنفك كريهة ، ولا تسمع منهن كلاماً الا ماملئ بذاءة وسباباً

***

بعد ان انتهت مظاهرات فرساى ، سلك كل فريق من فريقى النسوة المتظاهرات سلوكا مخالفاً لما سلكه الاخريات . أما المهيجات فلم يتركن للملك والملكة من فرصة للراحة. ففى الساعة السابعة من صباح ٧ اكتوبر التأم جمعهن خارج قصر التويلرى طالبات من الملكة ان تشرف عليهن . ولما نفذن أرادتهن صببن شتائمهن ولعناتهن على رأس المرأة النمسوية ، كما كن يسمينها ، وكن فوق ذلك

يعتقدن أنها سبب المصائب واس البلاء . ثم أخذن بعد ذلك يطفن على حوانيت باريس يجمعن منها بالعنف شرائط يتزين بها ، آخذات كل ما وصلت اليه أيديهن من النفائس، مدعيات ان ذلك من حقهن جزاء وطنيتهن التى دفعتهن الى الذهاب الى فرساى متظاهرات ضد الملك وحكومته .

أما رصيفات اولياء الصاخبات اللائى كن أكثر تعقلا واخلاداً للنظام ، فقد ذهبن الى القصر فى وضح النهار بعد ان تناجين وتباحثن فيما يعملن ، وسمح لهن بالدخول . أما الوصيفات فقد ظنن أنهن يردن الاقتراب من الملكة ، ولذا وقفن بين الملكة وبينهن وقد نشرن جلابيبهن الواسعة ليتقين بها أيديهن ان تمتد الى ملكتهن .

أما المتظاهرات فقد قمن باقصى مستطاعهن لكى يبرهن على أنهن لا يأخذن بضلع فيما فعل صويحباتهن الاوليات ، واستنكرن مافعلن ، حتى أنهن قد سلمن بعضهن الى رجال الشرطة لاخلالهن بالنظام . ولقد عنى مجلس بلدية باريس بان يفرق بين العنصرين اللذين تألفت منهما مظاهرة فرساى . فاطلق على العنصر الاول اسم « الوطنيات الصحيحات » ، تمييزاً لهن على العنصر الثانى . وصاغ المجلس قلادة لتخليد ذكراهن ، وخصهن بأحسن الاماكن فى الملاهى العامة وسمح لهن بأن يظهرن على المراسح وأن يشتركن فى الرقص الوطنى الذى كن يبتهجن به كل ابتهاج . غير ان الثورة لم تكد تندلع السنتها الملتهبة ، حتى أصبح حفظ النظام شيئاً ليس بذى قيمة ، وحتى سوت الظروف بين الفريق الثانى ، فريق الضجب والشدة، وبين الفريق الاول ، فريق « الوطنيات الصحيحات » . وبالجملة فكل من ذهب منهن الى فرساى قد رفع الى رتبة البطولة الوطنية .

فى السادس من نيفوز (حب تقويم الثورة) ـ أى يوم ٢٣ ديسمبر سنة ١٧٩٣ عقد اجتماع قال فيه رئيسه ان النساء « قد استقن الظالم كفريسة ضعيفة أمامهن » ـ وان بطلات فرساى يجب ان يسدن كل المجتمعات العامة ، وفيها يجب ان لا يختلطن ويمتزجن بالشعب .

***

لم يصل الينا كثير من أسماء النساء اللائى اشتركن فى تلك المظاهرة التاريخية . ولقد ذكرنا من قبل اسم لويزين شابرى التى ترأست وفد المندوبات الى الملك .

على أن المعروف عنها قليل لايشفى غليلا . والدليل على ذلك ان اسمها المسيحى غير معروف ، أو على الاقل مشكوك فيه. أكان اسمها لويزأم لويزون أم مادلين أم مرغريت ؟ أما الثابت المعروف فهو أنها كانت تقطن فى شارع ريشيليو ، ثم من بعد ذلك عاشت مع أبيها فى منزل تاجر خمور فى سوق « سانت كاترين » .

كانت لويزين فتاة طيبة القلب، وديعة الاخلاق . فقد تصدقت ليلة الزحف على فرساى باثنى عشرة فرنكا كانت معها على المسجونين فى « الاوتيل ده فيل » ولم تبق معها الا أربعة صلادى . وأدت شهادتها أمام محكمة شاتيليه فظهرت كما ظهر غيرها من النساء بمظهر الفخورة المعجبة بدورها الذى لعبته فى تلك الايام ، واحتجت أكبر احتجاج على الذين زعموا عنها أنها ارغمت على الاشتراك فى المظاهرة. ولكن الظاهر أنها غيرت رأيها فيما بعد ذلك . وآخر مايعرف عنها أنها كانت تجمع الصدقات لذكرى انتقاض فرساى أمام كنيسة « لابيتى بيير » حيث رأتها هنالك الأميرة « لامبال » والدوق « شارتر » والدوق « بانتيفر » .

صحبت لويزين شابرى فى الوفد الذى قابل الملك فى فرساى « مارى نبرى » و« روز بارى » صانعة دانتلا و « آن فورست » بائعة فى حانوت « وفرنسوار روبين » ، وعرفن فيما بعد بانهن مدام يابيه ومدام لكاير ومدام لافيو . وكانت روبين قد دعيت لترأس الوفد لا لويزين . غير ان روبين اذ كانت تتأبط ذراع مسيو مونييه رئيس الجمعية ركلها حارس سويسرى ركلة وحشية سببت لها اضراراً منعتها عن مرافقة الوفد ، الا بعد حين .

***

كانت تروانى ده مريكور ورينيه أودو أكثر النساء التصاقاً بحوادث اكتوبر . أما الاولى فكانت من أشد النساء تأثيراً ، كما كانت خاتمتها من أشد مآسى الثورة أخذاً بالمشاعر كما سنرى فيما بعد . ولقد تجمع حول اسمها كثير من الخرافات . فلامارتين وميشليه وده جونكور وكارليل قد رووا هذه الخرافات على أنها حقائق موثوقا بها . حتى أولئك الذين ينزلون من الأدب منزلة « تين » والذين ينكرون تلك الرواية التى تريك مدامواذيل تروانى ذات الشعر « الكستنائى » جالسة على عربة مدفع آخذة بقيادة مظاهرة فرساى ، يؤكدون أنها وزعت على الجنود نقوداً فى الميدان على أمل أن ترشوهم ليشتركوا فى الثورة . ولم يتقاعد عن مدحها الشعراء

فقد أجمعوا كلهم ، من بارتلمى الى بوديلير ، على التنويه بذكرها كقائدة للمظاهرة

أما آخر من ترجم عن حياة تروانى فمسيو « ليوبولد لا كور » وقد أخذ جميع قصته عنها من اعترافاتها ، فخرجت قصيرة لا تنقع غليلا . فلست تعرف منها إذا ما قرأتها ما اذا كانت تروانى قد اشتركت فى الذهاب الى فرساى بتة ، أو أنه قد خلف لنا أى شىء يصح الاعتماد عليه أو الاعتقاد به

***

هى حنا جوزيف ده تروانى ، وتعرف عادة باسم تروانى ، وهو الاسم الذى كانت توقع به أوراقها . ولدت سنة ١٧٦٢ فى ماركور لا مريكور كما يقال ، ولا تبعد هذه البلدة كثيراً عن « لياج » ماتت أمها وهى لا تزال طفلة بنت خمسة أعوام ، وبعد أن تزوج أبوها من زوجته الثانية وترك تروانى وأخويها لعناية زوجه الجديدة التى كانت قسوتها فى معاملتهم سبباً فى أن يتركوا بيت أبيهم ليلجؤوا الى منازل أقاربهم ، ولكن الظاهر أنهم لم يكونوا مع أقاربهم بأسعد حظا منهم مع زوجة أبيهم . كذلك تركت تروانى أسرتها وذهبت الى لمبرج لتعمل وتكسب قوتها ، فاستخدمها البعض راعية للابقار ، ثم انتقلت من ذلك فجأة الى وصيفة فى احدى بيوت لياج . من هنا يلقبها كتاب الثورة « بالليجية الحسناء » . أما نعتها بأنها حسناء فانا نشك فى أن تكون نظرات تروانى الوادعة وجفونها الناعسة سبباً فيه . فهنالك كثير من الاوصاف المستفيضة عن طلعة تروانى تدلنا على انها ان لم تكن جميلة بمعنى الجمال ، فانها كانت حسناء ضئيلة القد حادة الطبع . ذلك على الرغم من أنه لا توجد لها صورة ، اللهم الا واحدة صورت فى أواخر أيامها بعد أن أنهكها المرض ، وبعد أن فقدت كل جاذبيتها . أما عربتها التى كانت تستقلها فكانت تظهر فيها لفخامتها أطول قليلا من متوسط الطول فى النساء . أما عيناها فكانتا سوداوين براقين ، كستنائية الشعر . وكان لها أنف شامخ من تلك الانوف التى تغير وجه التاريخ وتقلب سير الدول والامبراطوريات .

أما عهد تروانى الذى قضته فى الوصافة فملوء بالاسرار . والظاهر أنها تركت لياج لتعيش فى انفرس ومن هنالك شخصت الى انجلترا . وليس يعلم أحد كيف ولماذا ومع من ذهبت الى هنالك ؟ ولكن يظن أنها اصطحبت شابا انجليزيا وعدها بالزواج . وراجت أقاصيص أخرى عن حياتها فى انجلترا . فقيل بأنها

صاحبت البرنس أوف ويلس وكانت له خليلة زمناً ما ، بعد أن قدمها إليه الدوق أورليان . غير أن هذه القصة مشكوك فيها . بيد أن هذه الاشاعات قد اتخذت فى العهد الاخير وسيلة لتدعيم نظرية أن تروانى قد أخذت بضلع فى تلك المؤامرة التى رمت الى خلع لويس السادس عشر ليحل محله عمه الدوق أورليـان . وكان من الطبيعى أن تنكر تروانى علاقتها بالدوق عنـد ما قبض عليهـا فى مظاهرات اكتوبر ، تلك المظاهرات التى يدعى بعض الكتاب انهـا جزء من المؤامرة التى دبرت تنفيذاً لرغبة دورليان . أما انكارها فمن الجائز أن يكون صحيحاً أو غير صحيح . كلا الامرين محتمل . ولقد قصت تروانى قصة حياتها فى انجلترا على أهل « ماركور » بعد أن عادت مثقلة بكمية كبيرة من المال . فقالت بأنها تزوجت من رجل انجليزى غنى مات بعد حين . ولقد اعتمدت على جهل أهلها باللغة الانجليزية فأبرزت لهم وثائق عديدة موقعة باسم « تروانى سبنستر » مدعية أن سبنستر هو لقب زوجها المتوفى . ولشد ما جهد المترجمون عن حياة تروانى من الفرنسويين أنفسهم فى تحقيق ذلك الزوج . وقد يقولون بأنه أبا ذلك الطفل الذى تدعى تروانى بأنها حملت فيه من زوجها الانجليزى ، وتزعم بأنه مات فى سن الطفولة .

من الوثائق التى يصح أن نثق بهـا أكثر من ثقتنا برواية تروانى نفسها ، وثائق تدلنا على أنه حوالى سنة ١٧٨٧ كانت تروانى فى باريس ، وانها كانت تتلقى هنالك رسائل من رجل فرنسوى شريف طاعن فى السن اسمه « أرمان نيقولا دوبلييه مركيزده برسان » أوصى لها بخمسة آلاف من الفرنكات معاشاً سنويا طول حياتها . غير أنه سرعان ما ندم على ما أغدق عليها من مكارمه لأن تروانى ، وكانت ذات صوت شجى رخيم ، أكبت على مرانه فى انجلترا غالباً ، قد أعلنت رغبتها فى أن تقف حياتها على الموسيقى ، وذهبت بالفعل الى « جنوا » مستصحبة مغنيا ايطاليا مشهوراً اسمه « تندوتشى » . وعلى الرغم من أن العقد الذى وقعته مع « تندوتشى » هذا أمر ذائع معروف ، فانها وقعته باسم تروانى سبنستر .

ومن الظاهر أن تروانى كانت تعتمد على مصادر مالية أخرى غير ذلك المعاش الذى أوصى لها به « ده برسان » . ولقد استمرت تأخذ هذا المعاش سنويا وكثر ما احتاجت الى قبضه مقدماً كما تدل على ذلك خطاباتها الى المحامى الباريسى « بريجو » تلك الخطابات التى تعتبر مصدراً من أوثق المصادر التى يعتمد عليها فى كتابه ترجمة حياتها

عادت تروانى من جنوا فى صيف سنة ١٧٨٨ . ولكنها لم تعد بعد تلك الفانية المرحة التى صحبت ذلك الايطالى ، ولا الكونتيس « ده كامبينادو » كما كانت تدعى لنفسها فى تلك الايام التى كانت ترى فيها فى لوجات الاوبرا تخب فى الديباج ، وينبعث منها وميض الدر والجوهر . أما الآن فان حياتها كفانية باريسية كانت قد انتهت . لأنها كانت قد دفعت ثمن مهنتها هذه فى ايطاليا غالية . فهنالك أصيبت بمبادئ ذلك المرض الذى اضطرها الى أن تقيم فى مستشفى « سالتيرير » ، وبدأت دولة جمالها فى الزوال ، بعد أن بدد عشيقها الايطالى أكثر ما كان عندها من مال وحطام . وعلى الجملة لم يبق لها من شىء الا حدة الذهن والذكاء النادر والفتنة النائمة فى عينيها فان هذه أشياء لم تفقدها تروانى وشيكا . ولذا حاولت دائماً أن تربح منها بقدر ما تستطيع . أما وقد عجزت الآن عن مزاولة مهنتها الاولى ، فقد عمدت الى السياسة وعملت على أن تكون من طالبات العلم وحاميات الأدب ، فنجحت نجاحاً كبيراً . حتى انها صاحبت علماء من أمثال « روم » وسياسيين من طابع « بيتيون » . وعلى الرغم من أنها أخفقت فى أن تجذب « آبى سيليس » الى بيتها ، فانها نجحت فى أن تجعل أخاه يزورها ويمحضها العطف والود . وبذلك أمكنها أن تنشىء صالوناً ، وأدمجت فيه نادياً .

لقد ملكت الموسيقى زمام تروانى فى أول حياتها ، ولم تكن السياسة مما يشغل لها بالا . غير انها لما عادت من ايطاليا وجدت نفسها مغمورة بين لجات السياسة العميقة ، لأنها كانت تقيم فى فندق تولوز بالقرب من الباليه رويال ، حيث كان قدر السياسة فى درجة الغليان طول أيام الثورة . وفى هذا المكان بدأ اهتمام تروانى بأمر الشعب . هذا إذا وثقنا باعترافات تروانى نفسها . وكان يلوح لها ان الثورة قد غيرت كل شىء وبدلت من كل قائم ، بل خيل اليها انها قلبت الطبائع البشرية فقضت على الانانية وحب الذات من قلوب الناس ، وألغت كل الفوارق التى كانت تفصل بين الطبقات . هنالك فى فسحات حدائق البالية رويال وقعت تروانى فى شراك الهيام ، ولكن مع ذلك المعقول الذى يدعوه الناس الحرية .

لقد شهدت تروانى فى صيف سنة ١٧٨٩ مشهداً لا بد من أن يكون قد أثر فيها أكبر تأثير . شهدت يوم ١٢ يوليه عند ما ذاعت الاخبار بأن الوزير نيكر قد نفى من فرنسا ، وكان خطيب ذلك اليوم رجل عرف بقوة العارضة وصلابة

الطبع . فان «كاميل ديمولان» قد اعتلى منصة الخطابة لا ليكلم النـاس من طريق العـقل ولا ليفصح لهم عن معميات السياسة، ولـكن ليلهب وجـدانهم ويستفز مشاعرهم ، فدعا الناس الى حمل السلاح ، واشعال نار الحرب الاهلية ، أو بالاحرى الى الثورة الاشتراكية ، فقال لهم :

« إن الوحش الكاسر في الفخ . فيجب علينا أن نجهز عليه الآن . وما من فرصة غير هذه انتظرت فيها فريسة أغنى وأشبع من هذه قدوم المنتصرين . فان أربعين ألف قصر وضيعة وخمسى ثروة فرنسا كلها تقدم ثمناً للشجاعة والاقدام »

في مساء ذلك اليوم — ١٢ يوليه سنة ١٧٨٩ — خطت تروانى أول خطوة فوق مزلقة السياسة . وكانت تسير مع خادمها إذ اصطدمت بشرذمة من الجند فسألتهم عما اذا كانوا في صف الرأى العام ؟ غير أن هذا السؤال كان كافياً لجرها الى السجن .

وفي يوم ١٤ يوليه المشهور ، يوم سقوط الباستيل ، شهدت تروانى أناساً يذرفون دموع الفرح والجذل ، عند ما أعلن ذلك الخبر في المسارح والحدائق. وفي يوم ١٧ يوليه ظهرت تروانى — الكونتيس « ده كامبينادو » — باعتبار ما سيكون، في أول مظاهرة سياسية . وكانت تلبس ثيـاب ركوب بيضاء وقبعة مستديرة ، وذهبت مع من ذهب لتحيي الملك لويس السادس عشر لدى قدومه من فرساى ليبارك أول انتصار للثورة ممثلا في تحطيم السجن الملكى .

وفي هـذا الحين غمرت تروانى نفسها في أكثر لجج الثورة عمقاً وأعتاها تياراً . وأكبت على قراءة كل المقالات والجرائد ولـكنها كانت تجد صعوبة في فهم ماتقرأ . وكان حبها في ان تكون مغمورة دائماً في ذلك اللج العميق سبباً في ان تعيش في فرساى في شارع ده نواى . وهنالك قضت معظم وقتها حريصة على ان تسمع كل المناقشات التى كانت تدور في الجمعية الوطنية . وعلى الرغم من أنها لم تستسغ في بداءة الامر تلك المناقشات ولم تعها ، فانها ثابرت حتى فهمت ان الشعب يستبد به اصحاب المصالح المادية ، وان الشعب في ثورته على حق ، لاعلى باطل .

وفي الخامس من اكتوبر سـنة ١٧٨٩ كانت تروانى في قاعة الجمعية الوطنية عندما وفد النساء المتظاهرات على فرساى . وما من حادثة واحـدة تؤيد ماقال

كارليل من ان تروانى كانت تركب عربة مدفع فى ذلك اليوم . ولم يذكر فى كل ماحفظ عن الثورة من مستندات تاريخية ان تروانى كانت من قائدات تلك المظاهرة ، بل إن هـذه الخرافة لم تذع الا بعد ماوقعت تلك المظاهرات بمدة أشهر من طريق كاتب نشرها فى احدى الصحف .

فى سنة ١٧٩٠ أنشأت ذلك الصالون السياسى الذى مر بنا ذكره ، وخطبت مرة فى نادى الـكوردلييه . وفى هذه السنة ذاتها غادرت باريس الى ماركور مسقط رأسها ، وفى ذلك الحين كانت محكمة شاتيليه قد أصدرت الامر بالقبض عليها . ولـكن لم تهتم سلطات باريس بأن تنفذ هذا القرار . ومن ماركور ذهبت الى لياج حيث قبض عليها رسل الحـكومة النمسوية بتهمة أنها احدى المحرضات على قتل مارى انطوانيت ملـكة فرنسا . غير أنه أفرج عنها بعد محادثة قصيرة مع الملك ليوبولد الثانى ، فعادت الى فرنسا سـنة ١٧٩٢ ، مقعوداً على رأسها ألوية جديدة من النصر والفخار جزاء امانتها ووطنيتها ، فازداد بذلك نفوذها واتسعت سلطتها . على أنها لم تشرف على ختام سـنة ١٧٩٣ حتى كانت نارها قد خبت وسلطتها قد زالت .

وكانت قد انضمت الى حزب الجيروندين وأخـذت بمبادئهم ، وكانوا من أعداء روبسيير أولا ، ومارا من بعده . فى شهر مايو سنة ١٧٩٣ سقط عليها عدد من نساء حزب اليعقوبيين ، أنصار روبسيير فقبضن عليها وعرينها من ثيابها وضربنها بالسوط علناً فى حـدائق قصر التويلرى . ولم تشرق عليهـا شمس سنة ١٧٩٤ حتى كانت قد جنت ، وفقدت رشدها . وكانت هذه الخاتمة فى الواقع أولى النتائج التى تترتب على مثل ماأتت تروانى من فعل فى حياتها السياسية .

ولقد ظلت حيناً فى بيت منعزل ، ثم نقلت الى مستشفى « سلتريير » وظلت هنالك حتى توفيت سنة ١٨١٧ . أليس فى هذه المآسى الـكبيرة عظة للسياسيين الذى يحاولون ان يقبضوا على خناق الشعوب كرها ، وان لايغلوا يد الطبيعة عن مسايرة وجهة نشوئها ، فينظمون خطا الارتقاء التى تقطعها الشعوب نحو سمتها المحتوم ، بدلا من ان يحاولوا قبضها بالحديد والنار ، فلا يجنون الا الثورات الفجائية ، وفورات الهدم والتحطيم ؟ « مؤرخ »

الانتحار كمؤثر اجتماعى

مراجعات عن الاستاذ جورج شترتون هيكل

٢ — إن نظرية مسيو تارد فى المحاكاة ـ التقليد ـ تتضمن بالضرورة فكرة ان كل تطور اجتماعى إنما يتحدد شكله بفعل عدد قليل من الشخصيات الممتازة تؤثر فى الحالة الاجتماعية بحيث يمتد نفوذهم الى كل طبقات المجتمع من أدناها وأحطها الى أعلاها وأشرفها . وعلى هذا يكون التطور الاجتماعى فى نظره عبارة عن سلسلة غير محدودة من الافعال كانت فى أصلها ونشوئها قاصرة على عدد محدود من الافراد ، أو على فرد واحد لاغير ، وان هذه الافعال وان شئت فسمها « الامثال » قد تذيع وتنتشر بطريقة آلية ميكانيكية من طريق المحاكاة ، فيعم أثرها طبقات المجتمع كله .

ولا مراء فى ان المحاكاة تلعب دوراً ذا خطورة فى الحياة الاجتماعية . وليس فى هذا ينحصر وجه الاعتراض . بل ينحصر فى ان نتساءل : « هل يمكن ان توصف نظرية مسيو تارد بانها نظرية اجتماعية » . كلا . فان هذه النظرية أولى بها أن توصف بانها نظرية فى علم « النفس الاجتماعى » ، وان تفسير مايتعلق منها بحقائق التطور الاجتماعى انما يمكن حصره فى مسألة واحدة هى ميل الفرد الى محاكاة غيره . أو بعبارة أخرى يمكننا ان نقول ان فكرة تارد فى علم النفس الاجتماعى لاتتعدى وضع قاعدة تقوم عليها فكرته فى علم النفس الفردى ، امتدت قليلا فى الزمان والمكان ، فأريد تطبيقها على المجموع . فالفرد فى مصطلحات علم النفس الفردى ، أو على الاقل عند مسيو تارد ، هو القوة التى تحتكم فى التطور الاجتماعى ، أما وجود نواميس اجتماعية فى مقدورها ان تؤثر فى الفرد وتحدد الافعال والحركات الاجتماعية تحديداً يتعذر حدوثه بطريقة أخرى ، فذلك مالا يتفق مع نظرية هذا الباحث .

بيد أنك تجد ان العلامة دوركهيم قد تطرف فى الذهاب بما يضاد هذه النظرية أشد تطرف .. فكما ان مسيو تارد قد عجز عن ادراك أنه عندما يعيش

عدد من الافراد معاً فى صورة جماعة ، فلا بد من ان تنشأ حالة لايمكن ان يخلقها فرد واحد ، وأنه مع نشوء هذه الحالة تتكون قوات جديدة لها قوانينها ونواميسها البعيدة كل البعد عن قواعد علم النفس الفردى ، كذلك العلامة دوركهيم فانه لم يجعل للدور الذى يلعبه الفرد فى النظام الاجتماعى الا قليلا من الاهمية والخطر . ولا خلاف فى أنه يستحيل على نواميس علم النفس الفردى وقواعده أن تعبر عن الحالات التى تقوم فى جماعة كبيرة قد ركبت تركيباً مزجيا الى حد بعيد . غير أننا بجانب هذا لا نستطيع أن ننكر أن الفرد يقوم بتمثيل دور هام على مرسح الاجتماع الانسانى . ولا مرية فى انه من الجائز ان الحالات التى تتشكل بها درجة من درجات التطور الاجتماعى الواقع بالفعل ، قد تساعد الفرد على أن يقتحم طريقاً أو يبدأ فعلا ما .

وقد يكون الفرد فى هذه الحال بمثابة قوة تنتهز فرصاً خلقت من غير أن يكون فى خلقها ووجودها أقل أثر لارادة أى انسان . غير أننا مع هذا لا ننسى انه اذا لم يقم عند سنوح تلك الفرصة النفسانية وفى الوقت نفسه شخصية عظيمة التأثير بالغة الغور فى الشعور العام ، فقد تضيع تلك الفرص هباءاً من غير أن يمكن استغلالها والانتفاع بها ، ومن الجائز أن تختلف إذ ذاك نتائج التطور الاجتماعى التى وصلت إليه اختلافا بيناً . فلو لم يقم نابوليون مثلا ، لاحتمل أن يكون حظ فرنسا من التطور بعد سنة ١٧٩٦ مباينا تمام المباينة عما وصل اليه بقيام هذه الشخصية . ولو كان وارث عرش فرنسا فى سنة ١٨٧٢ رجلا من صبغة نابوليون أو على الاقل رجلا سياسيا بعيد النظر نافذ البصيرة ، لاقيم اذ ذاك بناء الملوكية ، ولتقشعت عن جو فرنسا تلك السحب القاتمة التى غشت على أفقها فى ذلك الحين . فانه من المعروف أن الكونت ده شامبور Chambord لم يخفق فى أن يصير ملكا الا لأنه بقصر نظره وعناده ، قد رفض أن يقبل العلم المثلث الالوان ليكون شعاره . غير ان هذه الفرصة النادرة التى كان من الممكن ان تعيد فرنسا الى تقاليدها التاريخية قد فقدت ، ومن ثم حتى الآن اخذت الحوادث ذلك السمت الذى لم يكن من بد فى ان تتجه نحوه . لانه اذا فرت الفرص التى تسنح خلال الازمات الشديدة والكوارث العظمى ، فان امكان تدخل الافراد واحتكامهم فى سير الحوادث يزول بتاتاً . فاذا كانت الفرص التى تسنح عند وقوع حادث من الحوادث ذات صبغة

يمكن الانتفاع بها ، فان شخصية قوية يكون فى مستطاعها أن تستخدم تلك الفرص وتوجهها توجيهاً قد يحتكم كل الاحتكام فى تحديد الغايات التى يمكن أن تبلغ اليها أمة فى المستقبل . أما اذا لم تقم مثل هذه الشخصية فان القوات التى يبعثها التطور الاجتماعى من مكمنها لتفعل فعلا وتترك أثراً ، لا تقف جامدة أبداً ، بل تستمر فى النشوء والتغاير والانحراف على مقتضى حاجات وقواسر لا يمكن للفرد أن يحتكم فيها

على هذا نبدأ بحثنا مقتنعين بفكرة استقلال المبادئ الاجتماعية عن المبادئ الفردية . فالفرد ، الذى يستطيع أن ينتهز فرصة تسنح فيوجه عدداً من القوات الاجتماعية فى اتجاه ما بحيث يكون فى مقدوره أن يبعث فى تلك القوى قواسر جديدة تصرفها فى ناحية معينة ، هو بذاته نتاج للقوى الاجتماعية التى يجدها وقتاً ما تحت تصرفه ، والتى قد فعلت فى زمان ما فعلها وأثرت أثرها فى تكوين ذلك الفرد ، فجعلته ما هو ، من غير أن يكون له أقل اختيار فى كل ذلك . وما مثل التطور الاجتماعى الا كمثل كرة قد أخذت فى الانزلاق من فوق منحدر ، فانها تستمر فى طريقها . غير أنها قد تبلغ فى ذلك المنحدر مواضع يقل فيها انحداره . وفى هذه المواضع دون غيرها يستطيع فرد من الافراد يكون واقفاً على جانب الطريق التى سوف تمر منه الكرة أن يصد سيرها عن طريقها الذى اتبعته حتى بلغت إليه ، فيلكزها لكزة تصرفها عن طريقها الى طريق آخر . غير أنه كثيراً ما تكون اللكزة قوية حتى ان محدثها لا يستطيع أن يقف سير الكرة مرة أخرى ، وبذلك تستمر منحدرة الى غاية لم يستبنها من قبل ولم يرم إليها . انها ولا مشاحة تستمر منحدرة فى الطريق التى وجهها فيها حتى تصادف عقبة من العقبات . وهنا يكون لها أحد منقلبين : فاما أن تستقوى على العقبة وتنتزعها من مكانها فتشق الطريق ، وإما أن تعجز عن اقتلاعها فتقف قليلا لتتحول فى الطريق الممكن مرغمة عليه . وعلى هذا نقول إننا بجانب ما نقرر للفرد من أثر فى تكوين التاريخ غير منكور ، لا يجب علينا أن لا نغفل عن ان الكل الاجتماعى أو الكائن الاجتماعى فيه قوات ثابتة فى تضاعيفه ، فطرية فى تكوينه ، وان هذه القوات لا تستطيع أن تفعل فعلها وتؤثر أثرها مستقلة عن ارادة الفرد لا غير ، بل نقرر بأنها غالب ما تكتسح الفرد أمامها إذ هى تتدفق تدفق الانهار البعيدة الاغوار . هذا بينما يختال الفرد مملوءاً اعجاباً وزهواً ، بأنه هو الذى يحتكم فى

التطورات الاجتماعية ويوجهها فى السبل التى يرومها .

***

لنرجع الآن الى موضوعنا الذى نريد الكلام فيه ؛ وهو ينحصر فى ازدياد نسبة وقائع الانتحار . وسرعان ما نجد أن ازدياد هذه النسبة لم يصبح محسوساً منذ انتصاف القرن التاسع عشر لاغير ، بل نرى ان الانتحار عبارة عن صورة ثابتة من صور التطور الاجتماعى فى كل ممالك الارض، بما فيها الامم التى تمثل الحضارة الغربية . ولقد اتفق على هذه الفكرة كل المشتغلين بالاحصاء . ولقد ذكر العلامة دوركهيم ان ازدياد حوادث الانتحار كانت على النسبة الآتية : —

	في كل مليون من مجموع عدد ازدياد السكان	
بروسيا	٤١١	(١٨٢٦ — ٩٠)
فرنسا	٣٨٥	(١٨٢٦ — ٨٨)
النمسا	٣١٨	(١٨٤١ — ٧٧)
ساكسونى	٢٣٨	(١٨٤١ — ٧٥)
بلجيكا	٢١٢	(١٨٤١ — ٨٩)
اسوج	٧٢	(١٨٤١ — ٧٥)
دنمارك	٣٥	(١٨٤١ — ٧٥)
ايطاليا	١٠٩	(١٨٧٠ — ٩٠)

ولقد نزيد الى هذا ان الارقام التى أوردها المسجل العام فى تقريره السنوى، عام ١٩٠٠ قد تظهر ان خلال عشرين سنة من ١٨٨٠ الى ١٩٠٠ بلغت الزيادة فى عدد حوادث الانتحار فى انجلترا وويلس ٤٥ ٪

ولقد زودنا البروفسور وستارجارد Westergaard من كوبنهاغن بالارقام الآتية :

عدد وقائع الانتحار فى كل مليون من عدد السكان

المملكة	١٨٦٥—٦٩	١٨٨٠—٨٦	١٨٨٧—٩٣	١٨٩٤—٩٨
ايرلاندا	١٥	٢٢	٢٥	٣١
نروج	٧٧	٦٧	٦٤	٦٠
أسوج	٨٣	٩٨	١٢٥	١٥٩
ايطاليا	٢٨	٤٧	٥٤	٦٣
انجلترا وويلس	٦٧	٧٦	٨٢	٩٢
النمسا	٧١	١٦٤	١٦١	١٦٤
روسيا	١٣٩	٢٠٠	٢٠٠	٢٠٠
ساكسونى	٢٩٧	٣٧٥	٣٢٤	٣٠٧

ومن هذا الجدول نجد ان نروج هى المملكة الوحيدة التى يدل الاحصاء فيها على تناقص فى نسبة عدد وقائع الانتحار تناقصاً مستمراً . فبين الفترتين من ١٨٥٦—٦٩ الى ١٨٩٤—٩٨ قد نقص عدد حوادث الانتحار فى كل الف من السكان من ٧٧ الى ٦٠ . أما فى ساكسونى وهى مقر الانتحار وأرضه التاريخية فقد نقصت الحوادث من ٣٧٥ فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٨٨٠—٨٦ الى ٣٠٧ فى الفترة الواقعة بين سنتى ١٨٩٤—٩٨ . غير ان هذه الارقام الاخيرة أعلى بقليل من العدد ٢٩٧ للفترة الواقعة بين سنتى ١٨٦٥—٦٩ . وكيفما كانت الحال فان وقوع ثلاثمائة حادث من حوادث الانتحار بين كل مليون من مجموع عدد السكان كل سنة خلال أربع سنوات متوالية ، لنسبة مروعة . فى حين أنك تجد ان كل الممالك الاخرى التى ذكرناها فى الجدول قد اضطردت الزيادة فى حوادث الانتحار فيها اطراداً كبيراً .

ولقد حاول البروفسور ويرمنجهوس Wirminghaus ان يحصل على العدد الحقيقى لحوادث الانتحار فى فرنسا خلال زمان ينيف على نصف قرن . فقسم الستة والسبعين عاماً التى اتخذها ميداناً لبحثه الى خمس عشرة فترة . أما الارقام التى وصل اليها فليست فى حاجة الى الشرح . واليك ما وصل اليه .

١٨٢٦—٣٠	١ر٧٣٩	١٨٥١—٥٥	٣ر٦٣٦	١٨٦٧—٨٠	٦ر٢٥٦
١٨٣١—٣٥	٢ر١١٩	١٨٥٦—٦٠	٤ر٠٠٢	١٨٨١—٨٥	٧ر٣٣٩
١٨٣٦—٤٠	٢ر٥٧٥	١٦٦١—٦٥	٤ر٦٦١	١٨٨٦—٩٠	٨ر٢٨٦
١٨٤١—٤٥	٢ر٩٥١	١٨٦٦—٨٠	٤ر٩٩٠	١٨٩١—٩٢	٩ر٠٤٢
١٨٤٦—٥٠	٣ر٤٤٦	١٨٧١—٧٥	٥ر٢٧٦	١٨٩٣	٩ر٠٤٣

وفى هذا دلالة واضحة على ان هنالك اطراداً مستمراً فى ازدياد نسبة حوادث الانتحار منذ سنة ١٨٢٦ عندما كانت النسبة ١ر٧٣ الى سنة ١٨٩٣ اذ بلغت النسبة ٩ر٠٤٣

أما اذا رجعنا الى التقارير السنوية التى يصدرها المسجل الرسمى بمجموع المواليد والوفيات والزيجات خلال الفترة الواقعة بين سنة ١٨٨٠ وسنة ١٩٠٠ ، فاننا نجد ان ازدياد حوادث الانتحار فى كل الاعمار كان كما ذكر قبلا أو بنسبة ٤٥ ٪ فى انجلترا ووايلس .

حوادث الانتحار فى الاعمار المختلفة فى انجلترا ووايلس بين ١٨٨٠ — ١٩٠٠

السنة	المجموع	الاعمار									
		٥	١٠	١٥	٢٠	٢٥	٣٥	٤٥	٥٥	٦٥	٧٥	٨٥
١٨٨٠	١ر٤٩٦	—	٢	٢٩	٧٥	١٩٦	٢٦٧	٣٣٨	٣٥٠	١٩٦	٤٠	٣
١٨٨١	١ر٤٧٦	١	٥	٤١	٦٤	٢١٠	٢٩١	٢٣٢	٣٠١	١٨٢	٤٧	٢
١٨٨٢	١ر٤٤٦	—	٧	٤٠	٦٢	٢٠٠	٢٧٣	٣٠٧	٣٠٨	١٧٧	٥٩	٣
١٨٨٣	١ر٤٤٥	—	٤	٣٧	٧٧	١٩٢	٣٢٥	٢٩٦	٣٠٠	١٦٧	٤٢	٥
١٨٨٤	١ر٥٥٠	١	١١	٣٠	٦٨	٢٢٧	٢٨٤	٣١٥	٣٢٢	٢١٤	٦٤	٤
١٨٨٥	١ر٥٢٩	—	٤	٢٧	٧٠	٢٠٨	٢٩٨	٣٦١	٣١٧	١٩٧	٤١	٦
١٨٨٦	١ر٦٩٤	—	٥	٤٢	٨٩	٢٤٥	٣١٠	٣٦٥	٣٤٧	٢٣١	٥٦	٤
١٨٨٨	١ر٧٣٢	—	١٠	٤٣	٨٩	٢٣٩	٣٣٥	٣٦٧	٣٥٩	٢٣٠	٥٦	٤
١٨٨٩	١ر٦٢٦	١	٣	٤٧	٩٠	٢٣١	٢٩٥	٢٩١	٣٢٣	١٩٢	٥١	٢
١٨٩٠	١ر٦٣٥	—	٦	٣٨	٩٢	٢٧٧	٣١٤	٣٣٨	٢٩٨	٢٠٩	٥٥	٨
١٨٩١	١ر٨٦٣	—	١٠	—	٨٩	٢٩٥	٣٩٤	٤٠٢	٣٣٦	٢٣٩	٥٥	٦
١٨٩٢	٢ر٩٠٧	—	٨	٥٣	١١٦	٣١٨	٣٦٥	٣٩٤	٣٣٩	٢٣٨	٦٩	٧

تابع حوادث الانتحار في الاعمار المختلفة فى انجلترا وويلس بين ١٨٨٠ — ١٩٠٠

السنة	المجموع	الاعمار									
		٥	١٠	١٥	٢٠	٢٥	٣٥	٤٥	٥٥	٦٥	٧٥	٨٥
١٨٩٣	١٫٩٤٠	—	٧	٥٤	١٠٨	٣١٠	٣٨٧	٤٣٤	٣٦٨	٢٢١	٤٦	٥
١٨٩٤	٢٫٠٥٢	—	١٠	٥٢	١٢٢	٣١٥	٤٤٠	٤٣٨	٣٩٣	٢٢٨	٥٠	٤
١٨٩٥	٢٫٠٧١	—	٤	٥٧	١٣٦	٣١٢	٤٥٨	٤٤٨	٣٦٤	٢٢٠	٦٨	٩
١٨٩٦	١٫٩٧٩	—	٩	٥٧	٩٩	٣١٩	٤٠٧	٤٣٧	٣٩٢	١٩٦	٦٠	٣
١٨٩٧	٢٫٠٩٠	—	٧	٥٩	١٢٧	٣٢٧	٤٤٤	٤٧٠	٣٨٢	٢٠٢	٥٩	١١
١٨٩٨	٢٫١٦٦	—	٧	٥٣	١٣٤	٣٣٤	٤٧٠	٤٦٦	٤٢٤	٢٢٥	٥٢	١
١٨٩٩	٢٫١٢١	١	٦	٦٠	١٠١	٣٣٠	٤١٧	٥٠٧	٣٩٤	٢١٧	٨١	٧
١٩٠٠	٢٫١٦٦	١	٩	٤٣	١٠٧	٣٩٦	٤٦٣	٤٧٧	٤٠٩	٢١٨	٧٦	٣

والعصر الذى أخذنا فى بحثه وحدد بعشرين سنة هو لدى الواقع فترات قصيرة من الزمان . ومع هذا فاننا اذا مضينا نقارن جملة حوادث الانتحار فى كل الاعمار من سن العشر سنين إلى سن الخامسة والسبعين والتى وقعت سنة ١٨٨٠ بالحوادث التى وقعت سنة ١٩٠٠ فاننا نعثر بديا على زيادة محسوسة فى عدد الحوادث .

أما وقدارضينا فى أنفسنا نزعة الاستيثاق بان الانتحار ظاهرة اجتماعية موجودة بالفعل، فاننا نمضى من ثم فى تعليلها. وقد يظهر لاول وهلة أن ازدياد نسبة وقائع الانتحار ذات صلة كبيرة بازياد نسبة الجنون . لهذا وجب علينا أن نحذر الباحثين من التطوح مع التعميمات التى يقصد بها الخلط بين هاتين الظاهرتين ، لئلا ينظر أحدهم فى الانتحار على اعتبار أنه مظهر من مظاهر الجنون بالمعنى العامى المعروف . وبديا يمكننا أن نقرر أنه اذا نظرنا فى الانتحار على اعتبار أنه ليس بشىء سوى فعل يوحى به عقل مختل ، وانه اذا كانت الاسباب التى تؤدى إلى الانتحار يمكن أن يقتص اصلها فى حالات فردية من حالات الباثولوجيا العقلية ، أى التغاير المرضى الذى يصيب العقل عند الجنون ، تبع ذلك ضرورة أن تزداد نسبة حوادث الانتحار فى أحد الجنسين — الذكر والانثى — الذى يكون اكثر تعرضاً للجنون ، وفى الممالك التى تكثر فيها حوادث الاختلال

العقلى.غير أن هذا بعيد عن الواقع . فان الانتحار ظاهرة اجتماعية قد احتكرها الذكور احتكاراً . ولو كان الانتحار مظهراً خارجياً تابعاً لفعل عقل مختبل ، للزم متابعة لهذا أن تكون نسبة الجنون فى الذكور عظيمة ، متابعة لنسبة حوادث الانتحار بينهم . ولكيما نظهر أن الحقيقة على خلاف ذلك نرجع بك إلى الارقام التى أوردها دوركهيم والتى أظهر فيها نصيب الجنسين من نسبة الجنون ونسبة الانتحار . واليك بيانه :

نصيب الجنسين في نسبة الجنون محدداً بالنسبة المئوية

المملكة	السنة	الذكور	الاناث
سيليزيا	١٨٥٨	٤٩	٥١
ساكسونى	١٨٦١	٤٨	٥٢
فورتمبرج	١٨٥٣	٤٥	٥٥
دنمارك	١٨٤٧	٤٥	٥٥
نروج	١٨٥٥	٤٥	٥٦
فرنسا	١٨٦٠	٤٧	٥٣
فرنسا	١٨٩١	٤٨	٥٢

وهذه الارقام التى ذكرها العلامة دوركهيم ليبين بها عن نصيب كل من الجنسين نسبيا من ظاهرة الجنون ، يؤيدها ، اذا قصرنا البحث على كونتية لندن ، التقرير الاحصائى لسنة ١٩٠١ ، فان هذا التقرير قد أظهر أن نزلاء البيمارستانات فى كونتية لندن يمكن تقسيمه كالآتى :

	المجموع	ذكور	أناث
البيمارستانات العامة	١٧٢٠	٧١٦	١٠٠٤
البيمارستانات الخاصة	١٦٩٢	٧٣٠	٩٦٢

فاذا رجعنا ، من ناحية أخرى الى الارقام التى ذكرها دوركهيم فيما يتعلق بالنصيب النسبى لكل من الجنسين فى الانتحار ، فاننا نقع على نقيض ما تقدم تماماً . فبينما نجد فى الاحصاء الاول ان عدد النساء المصابات بالجنون أكثر من عدد الرجال المصابين به ، إذا بنا نجد أن عدد المنتحرين أزيد بكثير جدا من عدد

المنتحرات كما يتضح لك من نظرة عجلى فى الاحصاء الآتى الذى ذكره دوركهيم

المملكة		مجمل عدد حوادث الانتحار		النسبة المئوية	
		الرجال	النساء	الرجال	النساء
النمسا	(١٨٧٣ — ٧٧)	١١٫٤٢٩	٢٫٤٧٨	٨٢٫١	١٧٫٩
بروسيا	(١٨٧١ — ٧٦)	١٦٫٥٢٥	٣٫٧٢٧	٨١٫٥	١٨٫٥
ايطاليا	(١٨٧٢ — ٧٧)	٤٧٧٠	١١٩٥	٨٠٫٠	٢٠٫٠
ساكسونى	(١٨٧١ — ٧٦)	٣٦٢٥	٨٧٠	٨٠٫٧	١٩٫٣
فرنسا	(١٨٧١ — ٧٦)	٢٥٫٣٤١	٦٨٣٩	٧٨٫٧	٢١٫٣
دنمارك	(١٨٧٠ — ٧٦)	٣٣٧٥	٧٤٨	٩٦٫٩	٢٣٫١
انجلترا	(١٨٦٣ — ٦٧)	٤٩٠٥	١٧٩١	٧٣٫٣	٢٦٫٧

فاذا بحثنا عصراً أحدث من هذا فى أى مملكة نسميها ، ولتكن انجلترا وواياس خلال عصر محدد بسنتى ١٨٩٧ — ١٩٠٠ فاننا نصل الى نتيجة مشابهة لهذه . وإليك البيان :

	المجموع	الرجال	النساء
انجلترا وواياس (١٨٩٧ — ١٩٠٠)	١١٫٤٠٩	٨٥٤٣	٢٨٦٦

ومن هنا نرى ان الجنون بينما هو غالب بين النساء مما هو بين الرجال ، فان نسبة الانتحار بين الرجال أزيد كثيراً جدا مما هى بين النساء. ومن هنا يتضح لنا بأجلى بيان خطر المضى فى هذا البحث مقتنعين بأن الانتحار مظهر بعينه من مظاهر الجنون ، ويبين لنا أن الجرى وراء التعميمات التى توهم بأن هنالك علاقة بين الظاهرتين وآصرة تربطهما ، أشد مما سبق خطراً على العلم وأساليبه العملية .

الزولوجيا

أو مبادئ علم الحيوان

— ٥ —

تقسيم الحيوانات

قل من يجهل أن فى الدنيا عديداً وافياً من مختلف أصناف الحيوانات . وأقل من هؤلاء من يجهلون أن بعضاً من هذه الحيوانات يشابه البعض الآخر مشابهة قريبة ، بينما بعضها يختلف عن بعض جهد الاختلاف . فان بين بعض أنواع الدج Thrush مشابهة قريبة ، بينما لا تستطيع أن تقع على شىء من المشابهة بين سمكة من صلبان البحر وبين الفيل مثلا . فاذا انعمت النظر فى هذا الموضوع الفيت أنه من الممكن تقسيم الحيوانات الى جموع تتفق أفرادها فى الهيكل التركيبى الذى تبنى عليه اجسامها . ومثل هذه الجموع تدعى اصطلاحا « الاصول » ([1]) وهى كلمة أغريقية معناها ورقة أو نوع حينا أو أصل أو سلالة حيناً آخر . فالبروتوزووا ، أى الحيوانات التى ليس لها شىء من التركيب الخلوى تكون أصلا من هذه الاصول .

بيد أن الميتازووا تحتوى على كثير من الاصول . ولا جرم أن وصف كل الاصول الحيوانية هنا يستغرق فراغا كبيراً ، ولهذا نقتصر على وصف أكثر الاصول أهمية فى مملكة الحيوان ، بحيث نتناول أخطر ظواهرها بالشرح والبيان . ولنبدأ بالاصلين اللذين هما أبسط كل الأصول الحيوانية ونعنى بهما البوريفيرا أى الاسفنجيات والكولنتيراتا أى الاخطبوطيات ، والحيوانات التى تتضمنها هاتان الفصيلتان تتكون من سلسلة من الانابيب تتركب جدرانها من طبقتين من الخلايا ، ويفصل بين هاتين الطبقتين افراز شبيه بالسوائل يدعى « الهلام » والغالب أن يحتوى هذا الهلام على خلايا تكون قد هاجرت من الطبقة

صرفنا على كلمة Phylum ترجمة اصل لانها أدل على المعنى ولأن الأصل يتضمن كثيراً من الفصائل والسلالات والانواع وما الى ذلك .

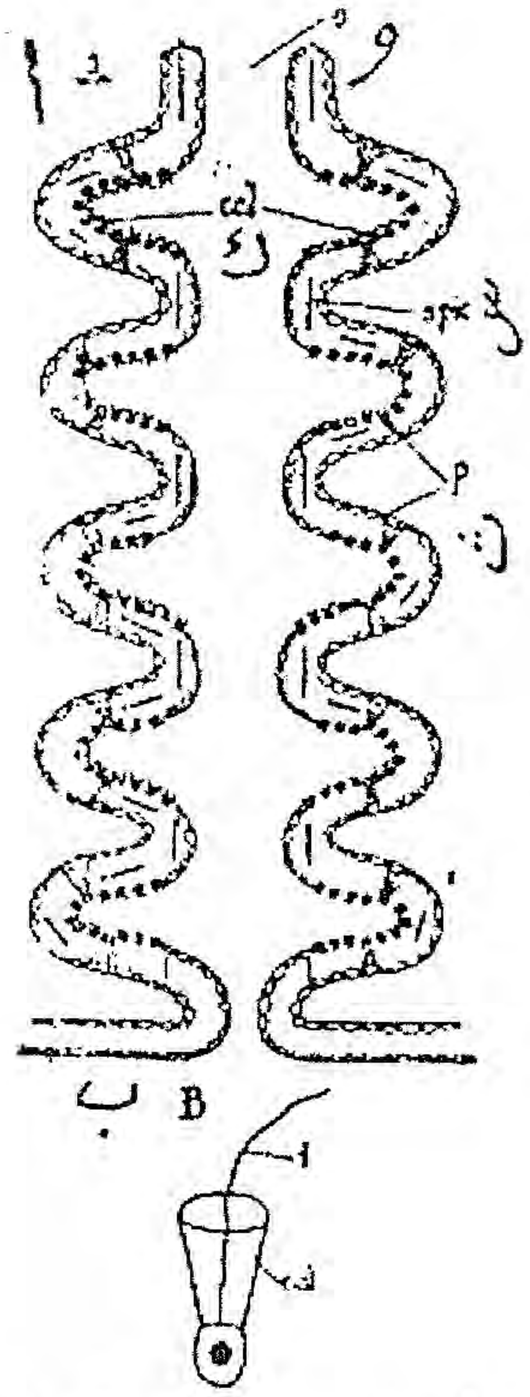

ش ٩ — (ا) قطع طولى لحيوان الاسفنج المادي ، تظهر فيه الخلايا الطوقية والابر ممثلة بنقط سوداء (ب) خلية طوقية مكبرة . (ك) فى (ا) خلية طوقية — وفي (ب) خلية طوقية (و) فوهة (ث) ثقب (س) ابرة

الخارجية الى الداخل ، وهى فى كثير من الحالات تفرز « إبراً » (١) من مادة صوانية القوام أو كلسيته .

وهذا الهلام بما فيه من الخلايا هو أبسط كل أنواع الهياكل العظمية ، وفيه تكمن بدايات النظام الدموى . ومن الصعب أن نصف حيواناً من الحيوانات التى تكون هذه الفصائل وصفاً علميا نحدده تحديداً تاما . فان حيواناً منها فى أبسط صوره يكون عبارة عن « أنبوبة » ينتهى طرفها بفتحة ما . وحيثما تتفرع هذه الانبوبة نعتبر تفرعها هذا « تبرعماً » Budding أى تناسلا لا جنسياً Asexual reproduction . وهذه الفروع قد تنفصل انفصالا تاما عن الجذع الاصلى « أى الانبوبة » ولكن يمكن أن تبقى متصلة به مكونة حين اتصالها الكائن عضوى آخر أرقى تكويناً من الاصل الذى عنه تفرع . وفى كلتا هاتين الفصيلتين يكون أحد طرفى الانبوبة مفتوحاً إما بطريق مباشر وإما بطريق غير مباشر ، الى الخارج بفتحة كبيرة . ففى البوريفيرا أى الاسفنجيات تستعمل هذه الفتحة لابراز البقايا التى لم تهضم من الطعام وتسمى فى الاصطلاح العلمى « الفوهة » Osculum بينما تكون الجدران « مثقبة » بعديد وافر من « الثقوب » Pores الدقيقة (ومن هنا أخذ اسم الفصيلة لأن بوريفيرا معناها ذوات الثقب) منها يدخل الماء حاملا معه مواد الطعام التى يغتذى بها الحيوان . أما الخلايا التى تتكون منها الطبقة الخارجية من أنابيب حيوان الاسفنج فتكون مسطحة تماماً ، ولكنها ، كما رأينا من قبل فى الفصل الرابع ، تكون ذات قدرة على تغيير شكلها الظاهر ، أى انها تكون قادرة على الانقباض . أما الخلايا التى تكون الطبقة الداخلية فى أبسط أنواع الاسفنج ، وبعض أجزاء من هذه الطبقة فى كل انواع الاسفنج ، فمن أغرب ما يشاهد فى هذه الحيوانات ، ومن أخطر خصائصها . وتسمى هذه الخلايا فى الاصطلاح العلمى « الخلايا الطوقية » Collar cells لكل

---

(١) تستعمل مجازاً .

منهـا طرف حر غير متصل بشيء يواجه التجويف الاسفنجى ، وطرف قاعدى يبرز من الهلام . ومن الطرف الحر يبرز « سوط » من اهتزازه يحدث فى الماء تيارآ يدخل الى الثقوب ، فيوصل الطعام الى الحيوان . ومن حول هذا السوط يكون طوق Collar « قمى » Funnel الشكل يدل ظاهره على أنه يتكون من مادة سيتوبلاسمية كثيفة ، وفى داخله يلوح التيار كأنه قد انقلب الى تيار زوبعى أو دردورى ، وتكون نتيجة هذه الحركة أن فضلات الطعام تدور مع التيار دورة زوبعية ، فتجتذب الى الداخل ، ثم تحتويها الخلايا الطوقية . أما الاسفنج العادى الذى نستعمله فى حماماتنا فعبارة عن الهيكل المجفف لنوع من الاسفنجيات الاكثر رقيا مما وصفنا . والهيكل من الاسفنج يتكون عادة من « إبر » صوانية أوكلسية ، وقد تكون هذه « الابر » فى بعض الانواع منظومة فى صورة « حبال » بواسطة مادة جيلاتينية تدعى عمليا « الاسفنجين » Spongin ففى الاسفنج الذى نستعمله فى الحمامات توجد هذه الحبال المكونة من الاسفنجين ، ولكن لا يوجد شيء من تلك « الابر » Spicules وعلى هذا تبنى الفائدة التى نجنيها من الاسفنج العادى ، لاننا لو استعملنا غيره من الانواع لمزقنا كلما اغتسلنا بشرة الوجه أو أى جزء من أجسامنا تقع عليه هذه الانواع .

***

الكولنتيراتا ـ Coelenterata أصل من الحيوان يحتوى على الاخطبوط والاسماك الهلامية ودياسم البحر وحيوينات المرجان . وهو كالبوريفيرا ، له فتحة واحدة تؤدى الى نظام كامل من الانابيب منها يتكون مجموع جسمها . ولكن هذه الفتحة فى الكولنتيراتا تستخدم فى ازدراد الطعام ـ Ingestion ـ وفى لفظ ـ Egection ـ المواد التى لم تهضم . أما جدران هذه الانابيب فمثل الجدران التى تكون أنابيب البوريفيرا ، تتكون من طبقتين من الخلايا ، تدعى الاولى منها الطبقة الخارجية Ectoderm والاخرى الطبقة الداخلية Endoderm ولكن الجدران الانبوبية غير مثقبة بثقوب ، كما ان الطبقة الداخلية لا تتكون من خلايا طوقية . وكذلك لا تحصل الكولنتيراتا على غذائها باحداث حركة زوبعية ، أو دردورية ، فى الماء المحيط بها . بل على العكس من هذا فان الفتحة النهائية التى تنتهى بها كل أنبوبة من أنابيبها تستخدم لأخذ الطعام وتدعى « الفم » Mouth

والفم محوط على نسق خاص بحلقة من المقابض (١) Tentacles يقبض بها الحيوان على فرائسه ويزج بها من طريق الفم داخل الانبوبة حيث تهضم . وهذه المقابض عبارة عن امتدادات عضلية تبرز من الجسم وفيها خاصية يقتدر بها الحيوان على الاتيان بحركة سريعة جد السرعة. وتحتوى الخلايا الخارجية على عدد عديد من الخلايا الزبانية Stinging cells-cnidoplasts وهذه الخلايا الزبانية صفة مميزة فى الكولنتيراتا، كما أن الخلايا العلوقية صفة مميزة فى البوريفيرا. وكل خلية من الخلايا الزبانية لها بروز صغير أو « شعرة حساسة » تتقبل المنبهات الخارجية . وعند ما تكون هذه الشعرة مدغمة فى مادتها السيتوبلاسمية تلوح ككيس صغير يدعى اصطلاحا Nematocyst أى « الجراب » وتحتوى على سائل صاف ، فى حين أن أحد طرفيها تراه مقلوباً الى داخل الخلية (كالجوارب) إذ يقلب نصفه الى داخله . وهذا الطرف طويل جهد الطول ويسمى اصطلاحاً « الخيط » Thread فاذا هيج الحيوان أى باعث تنقبض الخلايا التى تكون البشرة الخارجية من جسم الحيوان وتضغط على الخلية الزبانية . ويحدث نتيجة لهذا الفعل أن ينبجس جراب الخلية الزبانية خارجاً كما تخرج البزرة من الثمرة الناضجة ، وكذلك الطرف المنقلب الى الداخل من خيط الجراب ، فانه يبرز الى الخارج . ومن خصائص هذا الخيط أن يكون مغشى بمادة سامة ، فاذا اخترق هذا الخيط أجسام الحيوانات التى تغتذى بها الكولنتيراتا وتفترسها ، فانها تلدغها بهذه الحمة وتقتلها . وفى أكثر الحالات يكون هذا الخيط عاجزاً عن اختراق بشرة الانسان . ولكن الاسماك الهلامية الكبيرة الحجم يمكنها أن تخترق بخيطها بشرة الانسان ، وتكون النتيجة ألماً شديداً يحدث لمن يتعرض لأذاها .

أما « المرجان » Coral فاسم عام يصرف على الهيكل الصلب الذى يكون لهذه الحيوانات « الكولنتيراتا » اذا كانت مغطاة به . ويحدث هذا الهيكل بعدة طرق مختلفة . فالمرجان الاحمر الجميل الذى اعتاد الناس أن يصوغوه أقراطا وعقوداً يتكون عادة من إبر مادتها عبارة عن أجزاء كلسية ملتصق بعضها ببعض . وهذه الابر تتركب، كما تتركب إبر الاسفنج، من خلايا قد سبحت الى الهلام من طبقة الخلايا الخارجية . أما النوع الذى تتكون منه جزائر المرجان بأحجامها

---

(١) اضطررت الى ترجمة Tentacles بمقابض والحقيقة ان الاصطلاح الاصلى نفسه لا يؤدى المعنى المقصود تماماً . فان المقصود به أعضاء فى الحيوانات الدنيا تستخدم اما للقبض أو للتعلق بالاشياء أو للمس ولا نستطيع أن نسميها ملامس لأن الملامس وضعت ترجمة لكلمة Antennae فلامانع من ترجمة هذه الكلمة بمقابض .

العظيمة ، فالظاهر انه يتكون من افراز خارجى تفرزه خلايا الطبقة الخارجية . وبهذه الطريقة تتكون كؤوس **Thecae** تحتوى على أجسام أفراد الكولنتيراتا . وقد شبه القدماء — فى العصور الاولى — هذه الكؤوس بالازهار . ومن هذه الناحية قامت الاسطورة القديمة فى فروع المرجان ، إذ اعتقد الناس بأنها أزهار نوع من النباتات ينمو تحت سطح الماء **Subaqueous** وتنقلب الى صخر اذا تعرضت للهواء

بعد الكولنتيراتا يقع فى سلم الترتيب الحيوانى أصل آخر يدعى اصطلاحاً البلاتيهلمنثوس **Platyhelminthes** أى الديدان المسطحة . أما كلمة « دودة » **Worm** فقد ذاع استعمالها لتدل على أى نوع من المخلوقات المبرومة ذوات التركيب البسيط . ومن بين ما يدعى « ديداناً » تقع حيوانات تتبع أصولا مختلفة تمام الاختلاف . فالديدان المسطحة مثلا تتفق والكولنتيراتا من أن لها فماً تزدرد منه الطعام وتلفظ منه الفضلات التى لم تهضم ، وفى قيام هيكلها على نظام من الانابيب المشعبة الوضع تحدها طبقة داخلية من الخلايا وتحتويها طبقة أخرى خارجية ندعوها البشرة . غير أنك فى الديدان المسطحة تجد بين البشرة وبين الطبقة الداخلية كمية من الخلايا قد تعضنت فصارت أنسجة عضلية وعصبية ، وانها بلغت من التعضن والنشوء درجة لا تقع عليها فى صورة من صور الكولنتيراتا وعلى الاخص انك تجد فيها ركاماً من المادة العصبية تكون عقدتين كبيرتين تسميان مجازاً « المخ » **Brain** ووتران **Cords** أو لفافتان **Bands** تقعان على طول الجسم . وهنا نصادف فى الحيوانات تركزاً محدوداً لمادة عصبية تدعى اصطلاحاً « الجهاز العصبى الأوسط » **Central Nervous System** ومثل هذا الجهاز الذى يتكون من المخ ومن

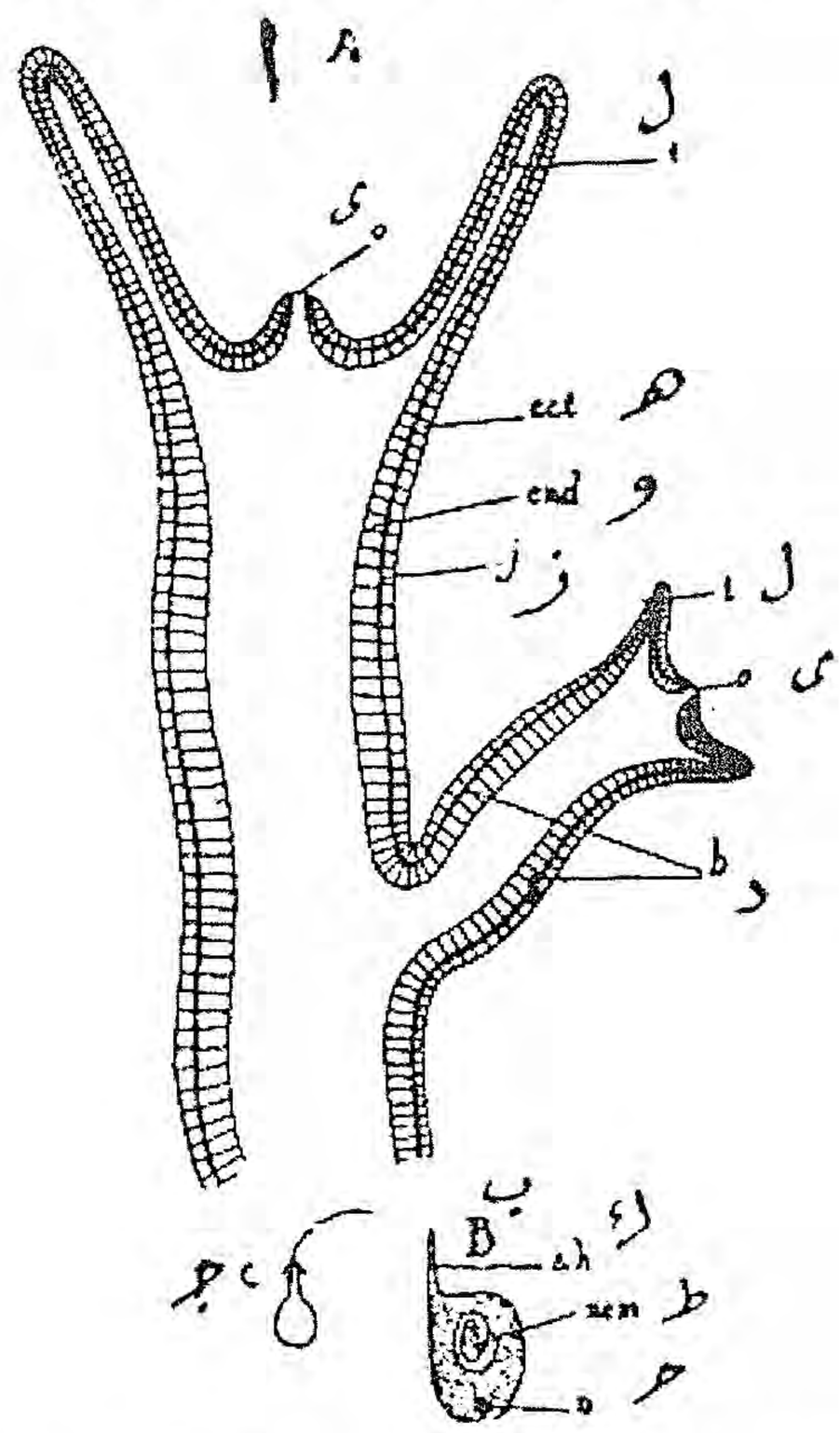

شكل ١٠ — (ا) قطع طولى للكولنتيراتا البسيط وبه برعمه متصلة به (ب) خلية زبانية وبداخلها جراب (ج) جراب بارز للخارج (د) برعم (هـ) الطبقة الخارجية (و) الطبقة الداخلية (ز) هلام (ح) نواة (ط) جراب (ي) فم (ك) شعرة حساسة (ل) مقبض

الوتران أو اللفافتان لايوجد فى أى نوع من أنواع الكولنتيراتا ، فى حين تمتاز به كل ضروب البلاتيهلمنثوس

وهذا الاصل يتضمن كثيراً من أنواع الحيوانات التى تعيش فى أجواف غيرها وتستمد غذاءها من أنسجة الحيوانات التى تغزو أجسامها . ومثل هذه الصور الغازية تدعى اصطلاحاً « الطفيليات » Parasites والحيوانات التى يوقعها سوء الحظ فى أن تكون ميداناً لغزوها هذا تدعى اصطلاحاً « المضيف » Host وبعض أنواع البلاتيهلمنثوس الطفيلية قد تجر الموت على مضيفها ، وعلى الاخص ديدان الكبد العريضة Liver flukes التى تعيش فى أكباد الغنم، فانها قد أحدثت لزراع انجلترا فى بعض السنين خسائر تقدر بملايين الجنيهات. ولكل حيوان منها خرطوم خاص به يتشبث بالجسم الذى يغزوه . ومن أنواع هذا الاصل الطفيلية نوع يعيش فى أمعاء الانسان وغيره من الحيوانات العليا وتسمى أفراده « الديدان الشريطية Tape Worms وتغتذى بالطعام المهضوم الذى يأكله مضيفوها ، ولهذا لا تجد فيها جهازاً هضميا . وهى تتكون من بشرة تحتوى على أعصاب وعضلات وخلايا تناسلية . أما سلسلة الانابيب المشعبة التى تكون لبقية أنواع هذا الاصل الحيوانى فلا أثر لها فى هذه الديدان . وهذه المخلوقات لاتحدث فى مضيفيها الا أثراً ضئيلا اذا بلغت أقصى مبلغ من كبر الحجم . غير أن كثيراً منها وهى لا تزال صغيرة وقبل أن تبلغ، قد تخترق اللحم وأعضاء الحيوانات الداخلية، وقد ينتهى فعلها هذا بالمرض ثم الموت . وهذه الطفيليات يجب لكى تبلغ وتكبر أن تنتهز فرصة أن يأكل مضيفها حيوان مفترس. فانه اذا حدث ذلك فانها هنالك تكبر وتصل الى حد البلوغ . وقد يحدث أن تدخل دودة شريطية الى مخ حيوان من الحيوانات الداجنة فتحدث المرض الذى نسميه « التسقيط » Staggers وقد تغزو أكباد الحيوانات الداجنة والانسان ، وتحدث هنالك أوراماً قد تنتهى غالباً بالقضاء على الجسم الحى موتاً .

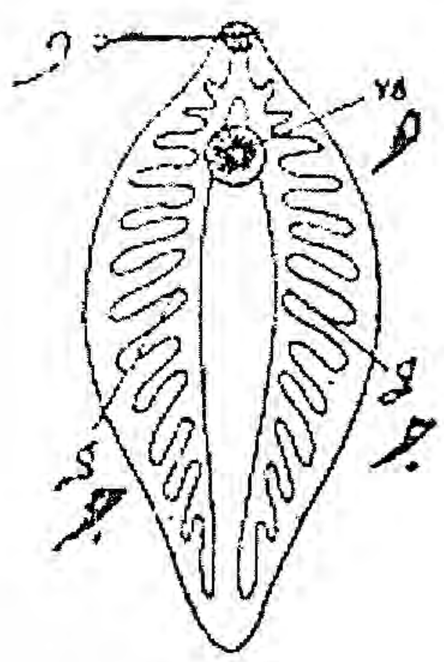

ش ١١ — (ا) دودة كبدية عريضة مرئية من الاسفل (ج) شعب الامعاء (و) الفم (ه) الخرطوم الماص

النقد والتأليف

تاريخ اليهود في بلاد العرب

للدكتور اسرائيل ولفنستون

لا يزال طريق النقد فى مصر ممتلئاً بما لا يستحب وذلك لخروج أصحاب الكتب عن جادة العقل والرزانة الى المهاترة والسباب ، ومنهم من يندفع بلا وعى فيقذف الناقد بفحش القول وبقلمه ان كان له شيء من الجرأة ، أو يختفى خلف بعض ضعاف الاخلاق يؤجرهم بالمال . فنحن فى يومنا هذا لم نتقدم خطوة الامام عن عهد فارس الشدياق ومن عاصره . ولكنى ولله سالم هذه المرة لأننى أواجه رجلا بتمام معنى الكلمة لم يثر فى طول البلاد وعرضها دعوة لترويج كتابه متبعاً كل ماوصلت اليه يده من طرق التهويش. فالدكتور ولفنسن ليس لحسن الحظ بالجعجاع المدعى أن كتابه بلغ أقصى ما يمكن للباحث الوصول إليه فهو والحالة هـذه ليس فريداً فى بابه ، ولكنه عرض كتابه على القراء بشيء كثير من التواضع الذى أظهر حقيقة شخصية مؤلفه ومبلغ علمه .

ان الموضوع الذى طرقه الدكتور ولفنسون لمن أشد المواضيع صعوبة على الباحث . فبلاد العرب لم تصر بعد صالحة لكى تكون ميداناً خصباً للمستندات التى لابد للمؤرخ من الوقوف على ما تحتويه فكل ما وصل إلينا عن الماضى أخبار مملوءة بالمغالاة والاساطير نقلها الخلف عن السلف بعد أن غيرت منها الاجيال وفق مقتضيات الظروف ولسوء الحظ لا يزال مؤرخونا الحاليين ينظرون الى الحقائق بعين غير منصفة فمنهم من يحاول أن ينتصر لكل ماشاد بذكره الاولون ومنهم من ينسب كل ما يسمعه الى أصل عربى. ولكن دكتورنا أجهد نفسه ليكتب التاريخ كمؤرخ وقد افلح فيما بذله لدرجة كبيرة . ولكنه زج بنفسه فى مأزق حرج لم يعرف كيف يتخلص منه فان روح الموضوع ولا شك تنحصر فى مقدار الأثر الذى تركه اليهود فى بلاد العرب ومبلغ تأثيرهم فى اعداد العقلية البـدوية لاقتبال تعاليم الاسلام، وهو معـذور لعدم مسه هذه النقطة جـديا لأن الجو غير قابل لهضم امثال

هذا البحث خصوصاً وان صاحبه موسوى ويعرف ما يطلب من المؤرخ قوله اذا قال لذلك نراه اتبع طريقة المؤرخين القدماء فى بسط الحوادث ثم معالجتها بالنقد لاستخراج غثها من سمينها ، وما عليك الا أن تقرأ تمحيصه لرواية ابن هشام «وبنجران بقايا من أهل دين عيسى ابن مريم وهم أهل فضل واستقامة فسار إليهم ذو نواس بجنوده ودعاهم الى اليهودية فخيرهم بين ذلك والقتل واختاروا القتل فخذلهم الاخدود فحرق من حرق بالنار وقتل بالسيف من قتل ومثل بهم حتى قتل منهم قريباً من عشرين ألفا ... ص ٤٥ » لتعرف مبلغ ظرفه وأدبه ورغبته فى أن يكون مسالما قدر الامكان فهو ينسف رأى هذا المؤرخ العربى والثقة الكبير بجملته فى غاية الرقة والظرف قائلا : « والذى يعلم ان نجران لم تكن سوى بلدة صغيرة يدهش لهذه المبالغة فى عدد القتلى إذ لم يكن عدد سكانها يزيد عن بضع مئات وفضلا عن ذلك فان ذا نواس لم يقتل كل أهالى نجران بدليل ان لهم ذكراً فى أخبار صدر الاسلام اه » ومثل هذا التمحيص كثير فى كتابه

ولكن طريقته هذه لم تفد الفائدة المرجوة لأن الحقائق التى أبرزها لم ترتبط ببعضها تماماً وذلك لقلة المادة التى يصح للباحث المؤرخ الاستناد عليها عند كتابة هذا البحث

وكم كنت أود لو أخرج الدكتور بحثه هذا بلغة أجنبية ليقرأه وسط أرقى من هذا الوسط حتى كانت تتجلى مقدرته تماماً فى كلامه عن روح الموضوع. فالتاريخ لم يعد سلسلة أخبار وحوادث كما فهم الاقدمون بل أصبح عبارة عن بسط حالة الامة الاجتماعية والفكرية ومقارنتها بأنظمة وأراء الامم المعاصرة مع ذكر المؤثرات التى تبادلتها مع غيرها ممن جاورها والدكتور لم يفعل هذا

ويمكن القول انه لم يفعل بكتابه هذا أكثر من تعبيد الطريق أمام غيره من البحاث الذين سيكتبون لوسط أرقى فى المستقبل. وانى أود لو أتاحت الظروف لحضرته أن يعيد الكرة بعد زمن قريب فهو أقدر من غيره على القيام بهذه المأمورية لسعة اطلاعه فى الموضوع

عمر عنايت

حول عصر المأمون

« ... وهل أتاك حديث موسى إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا انى آنست ناراً لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى .... »

ضل كليم الله بأهله فى ليلة ليلاء بمقربة من الوادى المقدس طوى ، فلما رأى ناراً قال لأهله امكثوا لأذهب إليها لعلى أحضر إليكم منها قبساً أو أجد على النار هدى يرشدنا إلى السبيل السوى .

وفى الساعة التى كادت تهبط على الكليم رسالة من الله وقد اكتمل مداور الرجولة واختاره الله ليستمع لما يوحى إليه ، لم يأنف ، وقد ضل الطريق وسجاه وأهله الليل البهيم ، أن يسعى الى النار ليسترشد بها ، والى الاقباس المضيئة يتخذها نبراساً ، يقيناً منه بأنه بشر مخلوق وأن لاعاصم له من الزلل الا الله ، وأن لاهادى له ، وقد اكتنفته الظلمات ، الا بارئ الاكوان .

هـذا مثال الكليم موسى والرسالة إليه هابطة ، والوحى الآلهى منه قاب قوسين أو أدنى . أما كليم وزارة الداخلية فى بداءة القرن العشرين ومهبط وحى الوزارات المعروفة ، وموزع الارزاق وقابضها ، وقاطع الاعمار وواصلها ، ومسبب الاسباب ، والمانح بحساب وبغير حساب ، والطافى على وجه الحياة اذا شاءت الاقدار أن يكون ناسج بردته ، ونافض لمته ، فى الوزراء رئيساً ، والهابط فى الحياة من بعد ذلك الى أبعد الاغوار اذا شاءت مقادير السياسة أن تنتزع من خالقه — سبحانك اللهم — سلطة الحكم والرياسة ، هذا الكليم الذى هبط علينا بتوراة جديدة ألبسها ثوب كتاب فى التاريخ ، هو كتاب عصر المأمون ، المنزل على لسان المعصوم من الخطأ المبرأ عن الزلل ، والذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الدكتور النابغة احمد بك فريد رفاعى المفتش بوزارة الداخلية ، أما هذا الذى يجب أن تعنو له الجباه ، وتمسح له الوجوه بالاعتاب ، والذى أخرج كتاب العام بل كتاب القرن بل كتاب العصور والدهور الى أن يرث الله الارض ومن عليها وهو خير الوارثين ، والذى فتح فى التاريخ فتحاً

جديداً ، بعد أن أوصدت أبوابه فكانت جامدا وحديداً ، والمرشح للرسالة الربانية السرمدية ليأخذ بيد أهل هـذا الجيل وقد هاموا فى وسط التيه ليبلغ بهم الى أرض المعاد ، أما هذا ..... فأين منه الكليم موسى وقد أراد أن يسترشد باقباس النار الذاوية فى رأس جبل بعيد عند منقطع العمران ؟

سبحانك رب ! إذ وهبتنـا فى سخطك وغضبك عقولا تميز بين مراتب الاشياء ، وضمائر تحز فى صميم وجداننا وخزاً أجدر أن تبعث به اليها يدك القاهرة القوية ، ونفوساً ما خضعت الا لموحيات ما خصصت به البشر من صفات الحياة والفكر ، ألا شاءت إرادتك أن توحى إلينا بهبوط نبى هـذا العصر من سماء المريخ أو زحل ، لا بمائدة فقد أكل عليها الكثيرون وشبعوا حتى فاضت معاهم بفضلات دفقت فكانت فى أعمدة الجرائد مقالات وفصولا ، ولا بآل المعز وذهبه فقد ملأ الجيوب وغشى على العيون والعـقول ، ولكن بكتاب « عصر المأمون » الذى رتل آياته المرتلون ، وشاد بذكره الشادون ، ولعله عمـا قريب يتلى على المقابر تبركا واستدراراً لمراحم السماء ، ولم ينقده فى أنحاء الشرق من أهل العربية ، وهم شعبك المختار ، الا يهوذا هذا الزمان ، وأسخريوطى هذا الأوان ، محرر مجلة العصور ؟

اللهم غفراً !!! ألم يأت لمحرر العصور نبأ تلك المعجزة الكبرى التى أفاءت على حواريي ذلك النبى ، بما جمع بين شتات أفكارهم فتواردت خواطرهم ، فكان رد حواريه الاول حسن حسين ، عليه من الله الرضوان ، فى جريدة المقطم ، هو نفس رد حواريه الثـانى « قارئ » ، ورد حواريه الثالث « عليم بمـا هنالك » عليهما السلام ، فى الكشكول !!! أليست هـذه معجزة كبرى أين منهـا ابراء الاكمه والابرص واحياء الموتى ؟ ألم يذكر حسن حسين فى المقطم أن محرر العصور رجع الى دائرة معارف الاسلام وكتاب كرد على ؟ ثم ذكرها « قارئ » فى الكشكول ، على نفس النمط وعلى ذات الاسلوب ! ألم يذكر الاول فى ما كتب أن محرر العصور لا يعرف الا أسماء كتب يجمعها من فهرستات المكاتب ، ثم ذكر الثانى ذلك فى مقاله !!! آمنا بك وأسلمنا وجهنـا على يدك لله حنيفا ، وصدقنا برسالتك ووحيك فاحشرنا مع التائبين ! !

ألم يستو حواريوه فى ذكر الغرور ونزق الشباب والجهل والغباء والتحامل

والضغن وما إلى ذلك مما فى قاموس الحواريين فى هذا العصر ، ومما ينىء عليهم نبيهم ببعضه ؟ ثم ألم ينصح لمحرر العصور أحد هؤلاء الحواريين الذين لا نعرف من أكثرهم إلا حروفا ورموزاً ، بأن رجعته إلى مثل ذلك «الهراء» الذى نشره فى العصور نقداً على الكتاب المنزل على لسان النبى المرسل ، سيكون عليه نقمة وسعيراً ، وشرا مستطيرا ! ! ؟ !!

ونحن بعد كل هذا لا نقول لهؤلاء النادبين فى مناحة الأدب ، الهادمين لما تقوم عليه نهضات الشعوب من حرية فى الرأى واستقلال فى الضمير ، العامدين إلى اللغو يظنونه علماً ، وإلى الجهل يحسبونه فيوضاً ونعما ، الكاذبين على وجدانهم فيما يكتبون ، الهارفين بما يعلمون وبما لا يعلمون ، الصارين بأرجلهم على خزائن الأدب يظنون انها عليهم وعلى الموحى إليهم وقفاً ومتاعاً ، المتلظين للتقرب من ذوى السلطة والجاه حرقة والتياعاً ، النافخين فى القصب الأجوف ليحيوا منه هيكلا نخره السوس ، لا نقول لهؤلاء ، واحداً واحداً ، كبيراً وصغيراً ، الا كما قال بنو اسرائيل لموسى : « من ذا الذى جعلك علينا حاكما وأميراً » .

***

وبعد . فقد عيب علينا أننا نظرنا فى ناحية بعينها من نواحى الكتاب ، كأن المدافعين عن الكتاب ومؤلفه قد عز عليهم إلا أن نظهر كل عوراته وأن نبين عن أخطائه الفاحشة وتعليلاته السقيمة التى أسند اليها الحوادث التاريخية الكبرى .

ولست أدرى كيف يتيسر نقد كتاب كعصر المأمون من غير أن يقسم أقساماً ويوزع أقساطا ، وقد اختلط فيه التاريخ بالأدب بالشعر بالفقه ، وترآى على مسرحه السياسيون والخطباء والشعراء والفقهاء على خشبة واحدة فظهروا كالخليط إذا اجتمع فيه العرب والعجم ، وامتزج فيه السامى بالآرى ، والصقلبى بالرومى ، والحبشى بالقوقاسى ، وأخذ كل منهم يرطن برطانته ، فكان من اختلاف صورهم وألسنتهم صورة ، هى أشبه الاشياء بكتاب عصر المأمون .

وأكبر ظنى أن مؤلف الكتاب لم يختر له عنوان « عصر المأمون » الا من أجل أن يفلت بذلك من النقد محاولته الافلات من كل شىء . فاذا انتقد من ناحية التاريخ ادعى انه كتاب فى الأدب . واذا انتقد من ناحية الأدب قال بأنه كتاب فى التاريخ . واذا انتقد من ناحية الفقه قال انه كتاب فى تعليل الحركة

الأدبية فى عصر المأمون . واذا انتقد من هذه الناحية زعم انه كتاب فى التراجم واذا انتقد من ناحية التراجم قال بأنه كتاب فى التاريخ العام، لاحرج على المؤلف إذا رجع فيه إلى حرب داحس والغبراء ، وذكر بجانب الأمين والمأمون غول تأبط شرا ، وجن سفيان بن حرب .

وكنا نظن أن مؤلف الكتاب والذين يشيدون بذكره من أذنابه يعرفون أن الاصل فى النقد اختلاف فى الرأى وتقرير لمختلف وجهات النظر من غير احتياج إلى ذكر الاصل بجانب النقد جرياً على الطريقة التى اتبعها قديماً فئة من الكتاب والنقاد . على اننا نجاريهم فيما يريدون ونذكر لهم فى هذا النقد كلمات المؤلف بذاتها لعلهم لا يدعون بانها ليست من الكتاب . على أن هذا مستطاع اتباعه ازاء أشياء ذكرت فى الكتاب وكانت خطأ ولكن كيف يمكن أن يتبع هذا ازاء وقائع تاريخية لا يمكن فهم عصر المأمون بغيرها ، ينكرها المؤلف كل انكار ، ويهملها كل اهمال ، كمسألة النقل إلى السريانية الذى تقدم النقل إلى العربية وتأثير الفكرات النسطورية واليعقوبيـة على صور الفكر التى ذاعت بين العرب وعلى الاخص فى عصر المأمون ؟ لاجرم أن مايطالبنا به اذناب المؤلف غير مستطاع فى هذه الناحية . لهذا نقصر النقد على ناحية واحدة هى ناحية الخلاف بين على وعثمان ونمضى ننقل فقرات من كتاب عصر المأمون ثم ننقل فقرات من كتاب سير وليم ميور وهو حجة بين المؤرخين الذين أرخوا فى الخلافة وله فيها كتاب لم ينس المؤلف أن يذكره فى كتابه ، ونحن على يقين من انه لم يقرؤه ولو قرأه لذكر على الاقل أن سير ميور يعلل الخلاف بين على وعثمان تعليلا تاريخياً صحيحاً راجعاً إلى ناحية التحليل التى يدعى المؤلف انه انتهجها فى كتابه . واذا لم يكن المؤلف قد عرف ماهى الطريقة التحليلية فى كتابة التاريخ فانا نقول له انها عبارة عن تحليل الحوادث إلى عناصرها الاولية والرجوع بها إلى أصولها الاولى لا إلى صورها الظاهرة التى تتشكل بها فى عصر ما من العصور. أما طريقة التحليل فقد اتبعها سير ميور بان حلل الخلاف إلى عناصره الاولية فبان له أن الخلاف موروث من العصر الجاهلى وانه كمن فى عهد الرسالة ، ثم أخذت بوادره تظهر بعد موت النبى مباشرة وظهر بأجلى صوره فى خلافة عثمان. أما طريقة التقرير فقد اتبعها مؤلف عصر المأمون بان أرجع الخلاف خطأ إلى مظاهر تشكلت بها العناصر الاولية فى أواخر عصر عثمان .

ولايجدر بنا أن تمر هذه الفرصةدون أن نرشد المؤلف إلى مراجع فى حقيقة التاريخ يصح أن يرجع اليها اذا أراد أن يؤلف فى التاريخ مرة أخرى . ليرجع إلى ما كتب نيبوهر الالمانى فى كتابه المعروف وإلى ما كتب ماكولى تريفيليان (لا لورد ماكولى) فى رسالة Clio أى آلهة التاريخ وإلى ما كتب العلامة الثبث ليكى فى مقالاته المعروفة . نذكر هذا ابتغاء مرضاة الله أولا وابتغاء النفع ثانياً

كان الخلاف بين قبائل العرب الموروث من الجاهلية سبباً فى سقوط أكبر دولة عربية عرفها التاريخ وهى دولة الاندلس . وكان هذا الخلاف الموروث سبباً فى أن تدمغ الامبراطوريات والدولات العربية بطابع القبائل بل بطابع العشائر والبطون . فمن دولة يؤسسها بنوهاشم إلى دولة يؤسسها بنوأمية . وظل الامر على هذا حتى خرجت الخلافة من يد العرب وسقطت الاندلس فى يد الاوروبيين الذين استردوها فى الواقع مستعينين بالخلاف الواقع بين البيوت والافخاذ العربية ولقد أثبت هذا الرأى باجلى بيان العلامة الكبير المؤرخ رينهارت دوزى وعقد فى ذكر هذا الخلاف أربعة فصول استغرقت من كتابه الخالد أسبانيا الاسلامية من ص ٦٥ إلى ص ١٢٢ (طبعه شاتو ووندس سنة ١٩١٣) تناول فيها الخلاف بين اليمنيين والمعديين ثم بين الخوارج والشيعة ثم بين الكلبيين والقيسيين، وعاد من بعد ذلك فعقد فصلا فى الصميل ابن حاتم وهو من أعيان القيسيين وذوى الجاه فيهم وما كان من الخلاف بين رجل كنانى من معد ورجل من بنى كلب تدخل فيه الصميل حتى كبر الخلاف وكان من آثاره أن مهد السبيل لعبد الرحمن الاول، صقر قريش ، أن يهبط الاندلس ويقبض عليها بيده القوية . وقد استغرق هذا الفصل من ص ١٤٩ إلى ص ١٦٠ من ذلك الكتاب الذى لانتاكأ فى القول بانه من العار أن يظل إلى الآن غير مترجم إلى العربية التى هى به أولى من كل اللغات الكثيرة التى ترجم اليها .

ولقد مضى دوزى فى كل فصول كتابه العظيم يتعقب أدوار هذا الخلاف حتى انتهى به إلى سقوط الاندلس فى قبضة الاوروبيين ، وما كانت لتسقط لولا هذا الخلاف الموروث . فاذا كان هذا الخلاف قد أسقط العرب فى الاندلس متنقلا من رمال البادية إلى أرض الحضارة ، فكيف به بين على وعثمان ورمال البادية لاتزال تحمى عليه من كورها المتوقد ؟

قال مؤلف كتاب عصر المأمون :

« حمل الفتح الاسلامى الذى قام به الخلفاء الراشدون فى سبيل الدعوة الدينية (فكأنه من القائلين بان الاسلام قام على الفتح والسيف وهو ما يخالفه فيه المحققون من المسلمين والافرنج معاً) من العناصر المادية والاجتماعية والسياسة ما كانت لى نتائجه وآثاره . فبعد ان كانت الاموال فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم نحو أربعين الفاً بين ابل وخيل ، وبعد ان كان عمر بن خطاب دهشاً مرتاباً حينما أبلغه أبو هريرة عند قدومه من البحرين أنه أتى بخمسمائة الف درهم — بعد ان كان دهشاً من هـذه الثروة أصبحنا نرى ، بعد عهده بقليل ، جسامة الهبات مما لا تعد هذه الاموال الى جانبها شيئاً مذكوراً . » ص ١ — ثم قال فى ص ٣

« ولكن الحال تغيرت الى مدى بعيد ، حتى أصبح المال غرضاً تشرئب نحو حيازته الاعناق وتنزع نحو امتلاكه النفوس » — وبعد ان ضرب مثلا بالحجاج اذا قال لاهل الشام وقد امتنعوا من ضرب الكعبة بالمنجنيق — « يأهل الشام قاتلوا على أعطيات عبد الملك » — ذكر ما يأتى :

« ذلك هو أثر المال فى الاخلاق والاحوال والنفوس طبقاً للتطورات الاجتماعية » . فكأنه يخيل اليه ان كثرة المال وقلته تحدث تطورات اجتماعية سامحه الله . فى حين أنها لاتحدث الا حالات اجتماعية تزول بزوال أسبابها . والا لذكر الاجتماعيون وعلماء النفس المال ضمن النواميس التى تحتكم فى صفات الافراد والجماعات . ثم قال فى ص ٦

« وليس من شك فى ان شباب العرب عامة وقريش خاصة لهم آمالهم ولهم مطامعهم وهم فى مقتبل عمرهم (كان قريشا كلها كانت شباباً فى عصر عثمان) حين يكون الطموح الى اعتلاء المراتب مصطدماً بالوازع الدين (ومتى اصطدم الوازع الدينى باعتلاء المراتب) وأنهم تألموا ان ينال عبدالله بن خالد بن أسيد خمسين ألف درهم ومروان بن الحكم خمسة عشر ألفاً مع ان عثمان استردها منهما لما عوتب ونوقش ، وتألموا لاحتكار آل عثمان مناصب الدولة وهم يرون فى أنفسهم من الكفايات والمواهب ومن الحسب والنسب مالا يقل عما لهؤلاء » — فكأن المؤلف يريد أن يقول إن كثرة الذهب والارزاق فى يدى عثمان وأيدى أهله هى السبب فى الخصومة ، لا بين عثمان وعلى ، بل بين أولاد هاشم وأولاد أمية — فتأمل .

فى هـذا السبب وحده حصر مؤلف عصر المأمون سبب الخلاف بين بنى هاشم وبنى أمية ، لم يذكر غيره بل عقد عليه فصلا طويلا مملا أكثر فيه من الاستشهاد بمن تزوج ودفع مهراً غالياً ، وبمن جاع من الجند وقواد الجند . وليس هـذا من الحقيقة التاريخية الا فى منزلة السبب الظاهر الذى يتخذ ذريعة لارضاء نزعة موروثة وخلاف تناقله الاخلاف عن الاسـلاف لايعرفه الا من عكف على طريقة التحليل التاريخى الذى يرد الحوادث الى عناصرها الأولية كما ذكرنا آنفاً . ونحن لا نريد أن نذكر للمؤلف أنه أخطأ اعتباطاً وأنه لم يألف طريقة التحليل التاريخى عفواً، بل نذكر له ماذكر السير وليم ميور ، الذى استشهد به فى غير موضع من كتابه ، والظاهر أن لم يقرؤه أبداً بل عرف اسمه فقط ، ليكون حكماً بيننا وبينه ، وبيننا وبين أذنابه ، الذين يهرفون باللغو وهم لايعرفون شيئاً ، ليعرف الناس ان مؤلف عصر المأمون قد اعتمد على الطبرى وابن الاثير وأمثالها من كتاب المدونات السقيمة ، وحلى ما كتب ببعض ألفاظ « كالتطور الاجتماعى » و« وطى آسفين » ، ليوهم الناس بانه كتب فى التاريخ . ولو استطاع المؤلف أن يثبت لى أن سير ميور قد ذكر فى مؤلفه عن الخلافة أن المـال كان سبب الخلاف بين بيت هاشم وبيت أمية مرة واحدة ، لاعترفت له بأنه قرأ كتاب ميور مرات لامرة واحدة .

جاء فى كتاب سير ميور ص١٩٩ وص ٢٠٠ من طبعة جون مرانت سنة ١٩١٥ مايلى:

«استمر حكم عثمان اثنى عشر عاماً . ولقد اعتاد الكتاب أن يذكروا أن الست سنوات الاولى كانت هادئة ، والست الاخيرة كانت على العكس من ذلك ، وبعبارة أخرى ، أن تيار الاحوال قد نكص إلى النقيض خلال السنوات الاخيرة من حكم عثمان . ونضج القلق وعدم الرضاء فصار شجاراً وتجمعت العواصف فانفجرت منقضة باقصى شدتها على الخليفة المسن . ان فى هذا جزء من الواقع . ولكن الحقيقة أن أسباب الكراهية كانت تعمل جادة منذ بدء خلافته وهذه الاسباب مزدوجة ، كما ذكرنا من قبل . وتنحصر أولا — فى العداء الواقع بين الامة العربية فى مجموعها وبين قريش — وثانياً — فى البغضاء بين بيت هاشم وبيت أمية الذى كان عثمان أحد افراده .

« ان الجنود العربية ، وقد سكرت بخمرة العظمة وجنت ثمار الانتصار ، كانت منتشرة فى كل أنحاء الامبراطورية . أما فى سوريا فقد كسرت من حدتهم

يد معاوية القوية التى زادها قوة كتلة كبيرة من مواطنيه الاشداء الذين هجروا مكة والمدينة واستوطنوا هنالك . على العكس مما كان فى بقية البلاد ، فان القبائل العربية ، وقد شعرت بقوتها وسلطانها ، قد سارعوا إلى العض بنواجزهم على ناصية الحال . ولقد تركزت كل النتائج التى أدت اليها نزعتهم المشبعة بحب الفوضى والتنازع العصبى فى بلدتى الكوفة والبصرة . وفى هاتين المدينتين ظهرت تلك النزعة لاول مرة خلال حكم عمر . ولم يكن فى مقدور عمر أن يكبح من جماح غطرستهم وخشونتهم . فلقد تعب العرب من الحكم المنظم : وكان السبب فى هذا أن نجاح الاسلام كان نتاج لسيوفهم من جهة ، ولأن الاسلام، وقد دعى الى الاخوة والمساواة قد وضع كل المؤمنين وعلى الأخص من جرى فى عروقه منهم الدم العربى فى صف واحد من غير تفضيل بينهم، من جهة أخرى . والحقيقة ان قوة أمير المؤمنين كخليفة للنبى كانت مطلقة غير مقيدة بأية سلطة دستورية من أى نوع كانت . غير أنه كان ، على الرغم من هذا ، يخضع الى ميول الرأى العام . فلم يكن يستشير الزعماء الذين هم حوله عند حلول الساعات الرهيبة لاغير ، بل كانت القاعدة أن يفرض على عماله الخضوع لمثل هذا العرف ما دام هو خاضع له . وعلى هذا نجد أن الامتيازات التى منحها عمر بن الخطاب الى أهالى الكوفة والبصرة إجابة لبعض مطالبهم قد وضعت أمام خلفه عقبة شديدة وأعطته درساً مرا ، إذ هيأت أهل هاتين المدينتين بفرصة أستشموا بها ريح القوة ، فلم يلبثوا أن فكروا فى الانتفاع بها . وبهذا أخذت روح الفتنه تشتد على مر الأيام . روح العناد والخصام للسلطة الحاكمة ، والتبرم بالحكم القريشى . »

« أما السبب الثانى ، فعلى الرغم من أنه كان أقل تهديداً للاسلام فى مجمله ، فانه كان أكثر للخلافة كيداً وأشد منها نيلا ، وعلى الأخص من شخص عثمان . فلو أن قريشاً كانت قد التأمت وحداتها من حول الخلافة لكان فى مستطاعهم أن يقتلوا روح الخلاف العصبى فى مهده . غير أن ضعف عثمان ، وروح التحيز التى قرب بها أهله الاقربين ، قد أهاجت روح الغيرة فى بنى هاشم ، فبدأوا يتحدثون بحق على بن أبى طالب وأسرة النبى وأخذوا يعملون على اسقاط بنى أمية الذين منهم عثمان أمير المؤمنين . وهذا الفرع ، لسوء حظ بيت أمية ، كان من أواخر من اعترف برسالة النبى . كما كان الذين حباهم عثمان بعنايته من أوائل الذين قاوموا الاسلام وأعلنوا عليه الجهاد . وهنا رجعت الذكرى الى كل ما فاه به محمد فى تلك

الايام التى ملئت كراهية وحقداً واتخذت سبباً فى تسويد صفحاتهم ، وتزويد الناس بأسباب تضعف الثقة بالحكومة التى أيدتهم ورفعت مراتبهم وزودتهم بالقوة والسلطان . وبهذا انقسمت قريش ، فأوهنت المشاحنات من نفوذهم ، وفقد عثمان ذلك العضد الذى كان يستطيع به ، لولا هذه المشاحنات ، أن يقضى به على روح التبرم العربية . ومما زاد النار لهيباً أن عليا وحزبه قد ارتطموا فى حمأة سياسة الخروج على الحكومة الرسيسة فى الخلق البدوى ، تلك السياسة التى كانت تمتص بسرعة دم الخلافة ، والتى كان من المحتوم ، كما كان من الواجب على علي أن يدرك ، أن تنقلب عليه فى النهاية ، إذا شاءت الاقدار أن يكون خليفة يوماً ما . »

هذه هى الاسباب التى يعزو إليها السير وليم ميور الخلاف بين على وعثمان ، بل الخلاف بين بيت هاشم يمثله الاول ، وبين بيت أمية يمثله الثانى . وهذا هو التحليل الدقيق لعناصر التاريخ الأولية وتدعى هذه الطريقة عند المؤرخين طريقة التحليل التاريخى . فلو أن مؤلف عصر المأمون كان قد قرأ شيئاً من مؤلف سير ميور كما يدعى لاستطاع ، على الأقل ، أن يسترشد بهذه الاقباس ولتيسر له أن يقترض منها قبساً يضىء به نواحى هذا العصر ، عصر الخلاف الاموى الهاشمى ، بدل أن يتركها فى مدلهم تلك الظلمات التى تركها فيها ، وغامر بان يلقيها على شباب هذا العصر على أنها تاريخ وما هى من التاريخ فى كثير ولا قليل .

أمثال هذه الاخطاء التاريخية كثيرة فى الكتاب . ولا نعلم كيف يمكن أن تكون تاريخاً تلك الروايات الآخذ بعضها برقاب بعض والتى قذفنا بها مؤرخ عصر المامون من غير أن يحلل شيئاً منها الى عناصره الاولية . ولا شك فى أن الكتاب اذا أخذ على أنه مدونه مستفيضة لحوادث وقعت فى فترات من تاريخ العرب لأستحق تقدير الذين يعجبون بالمدونات . أما انه تاريخ مفصل لعصر المامون أو لغيره من العصور ، فذلك ما لا يسلم به كل من وقف على حقيقة التاريخ وعرف ما هو التحليل التاريخى الحديث . وبعد كل هذا فنحن نلوم أساتذة الجامعة على شىء واحد . فما كان أجدرهم بان يقتصروا على أن يجعلوا مؤلف عصر المامون دكتوراً فى التدوين . أما لقب فائق فذلك ما لا يسلم لهم به بن الاثير والطبرى وأبو الفدا والمقريزى وآخرهم الجبرتى فى عصر الحملة الفرنسوية .

اسماعيل مظهر

ذكرى أستاذى الراحل

الدكتور يعقوب صروف

بمناسبة ظهور أول أثر للمقتطف بعد وفاته

الرواد

٣١٦ صحيفة من قطع العصور . مطبعة المقتطف . الثمن ٢٠ قرشاً . مصر ١٩٢٧

بعد ان توفى سبينوزا هب أصدقاؤه الى نشر ماخلف من مؤلفات بعد موته . وكان كتابه « الأوبرا بوستيوما » أول ماوقع عليه اختيار الاصدقاء ليطبع وينشر فى الناس . ولم يكد ينشر هذا الكتاب حتى هب اللاهوتيون خفافاً وثقالا يناهضون آثار الراحل العظيم ، ولم يأت يوم ٤ فبراير سنة ١٦٧٨ حتى صب اللاهوتيون لعنتهم على الكتاب زاعمين أنه كتاب « تجديف لم يظهر له من مثيل منذ خلق العالم حتى اليوم » . ولم يمض على هـذا الحادث قرنان من الزمان حتى تهيأت النفوس وأعدت العقول لان يقام لاسبينوزا أثراً تذكارياً كان من حسن الحظ ان يدشنه «رينان» أحد عظماء القرن الماضى ، ومن أكبر مؤرخى النصرانية ، مشيراً باصبعه الى النافذة التى كان يطل منها سبينوزا على ميدان بافلجوين فى لاهاى قائلا :

« لعل الله كان أقرب الى هذه النافذة منه الى أى مكان فى الارض » .

وفى يوم الاحد ١٠ يوليه سنة ١٩٢٧ كنت حيث اعتدت ان التقى باستاذى الراحل العظيم الدكتور يعقوب صروف بعد ان وصل الى سمعى نعيه ببضع دقائق ، ولم أكد أقف أمام حجرته حتى رجعت بى الذاكرة الى حكمة رينان فقلت فى نفسى «لعل الله كان أقرب الى هذه الحجرة منه الى أى مكان فى الارض»

وأى مكان فى الأرض يمكن ان يكون الله أقرب اليه ، أو هو أقرب الى الله ، من مكان يفيض بالعلم والعرفان والعطف والخلق الرضى والسماحة وحب الاقربين والأبعدين على السواء ، كأن منازل العلاقات البشرية قد تساوت فيه ،

فلا يحس قريب بأنه أكثر دنواً وأوصل رحماً من غريب تجمعه بمن حل فيه رابطة علم أو أدب أو أية علاقة من العلاقات الدنيوية التى يشعر بشر فان بأنه ازاءها من حاجة الى أمل يرجى أو معروف يسدى ؟

ليت شعرى . هل كان الاستاذ الراحل العظيم يحس بدنو الاجل وهو بعد فى أظهر مظاهر القوة عقلياً وجسمانياً ؟ أم كان صفاء نفسه يوحى اليه بأنه قريب لان يدعى الى العالم الثانى فيحدثنى كلما التقيت به خلال الاشهر الثلاثة التى تقدمت يوم مصرعه عن الموت وعن الخلود وعن الفناء وعن الله وعن الأثير ؟ كنت واياه فى حجرته قبل ان يختاره الله لجنابه ببضعة أسابيع وجرى بيننا الكلام فى تاريخ الحضارة العربية ، ولى فيها رأى كان لاينفك الاستاذ عن تشجيعى على المضى فيه والتمكين له بكثرة القراءة والبحث ، وما زلنا نتنقل من موضوع الى موضوع حتى عرض لنا الكلام على أثر الثقافة اليونانية فى حضارة العرب ، وأخذ يكلمنى فى الدلالات اللغوية التى يمكن ان تكون برهاناً على ان العرب ترجموا قواعد علم العروض عن اليونان ومن ثم طبقوه على البحور العربية ، وبعد ان أبدى أسفه لقلة علمه بلغة الاغريق القديمة ليكون أقدر على هذا البحث ، التفت الى فجأة بعد صمت قليل كما كانت عادته اذا أراد ان يغير مجرى الحديث وقال : اذا لم تكن حياة فى عالم آخر غير هذا العالم كانت هذه الحياة الدنيا عبث فى عبث . فقلت ليس عندنا من برهان علمى يحقق هذه الاحلام ؟ فقال اذا كانت هذه الحياة مقدمة فلا بد لها من نتيجة ، وأية نتيجة يؤيدها القياس المنطقى أكثر من الاعتقاد بحياة أخرى تكمل مافى هذه الحياة من مناحى النقص ؟ فاجبته لعل هذه الحياة لاتكون مقدمة بل تكون نتيجة ، اليها المرجع والمنتهى . فاطرق قليلا ثم قال وكأنه يناجى نفسه : الطبيعة سلسلة من السوابق واللواحق وخط منظوم من المقدمات والنتائج لاتنتهى الا عند غاية لانستطيع ان نقف على ماهيتها . فسواء أكانت هذه الحياة مقدمة أم نتيجة فالامر واحد . لان المقدمة هى تحكم تسلسل الطبيعة مقدمة ونتيجة تؤدى بدورها الى مقدمة أخرى . ولا أظن ان نظام الحياة يخرج عن نظام الكون فى مجموعه . وكان صمت عميق انسللت بعده الى ناحية من نواحى المكتبة وأخذت أقلب فى كتاب من الكتب العربية القديمة ، ولكن فكرتى كانت متجهة بكل مافيها من قوة الحصر والتذكر

الى هـذا الحديث القصير ، غير عالم أنه كان مقدمة لنتيجة ظلت حياة الاستاذ الراحل رهن عليها الى أجل قريب .

واليوم أكتب هذا الحديث رواية عن الصديق الراحل .

تالله ما أبعد اليوم ما بيننا وبينه . وتالله ما كان أقربه بالامس الينا . أفى لحظة واحدة يصبح الانسان مجرد رواية وخبر . بعد ان كان حقيقة ملموسة باليد مرئية بالبصر ؟ ولكن من يدرينا . لعل هذه الحياة تكون الخبر عند من يلمس الحقيقة العظمى بعد ان يفارق السر الكامن فيه هذا الهيكل الترابى ؟

وبعد . فلست فى موطن أستطيع فيه ان أطنب فى الالمام بذكريات سبع من السنين عقدت خلالها بينى وبين الاستاذ الراحل عرى الصداقة الصحيحة التى حلت عروتها بموته ، ولكنها ستظل حية بذكراه . ولو أردت اليوم ان أحيط بكل ماتخلل هذه السنوات السبع من الذكريات العلمية والمباحث العميقة التى تناقشنا فيها، لما وسعنى كتاب ضخم ألم فيه بنواحيها العديدة . ولكن حسبى اليوم ان أتكلم فيه كصديق وأكبر ظنى ان هذه الناحية هى أظهر نواحيه كرجل وفيها تنحصر ماهيته الفردية . ولا أظن أنه كعالم إلا معدوداً من البيولوجيين أولا . فلا المباحث البيولوجية التى تناولها منذ نيف وخمسين عاماً ، ولا الكلمات الاصطلاحية التى أكب على ترجمتها أونحتها أو تعريبها ، كانت فى متناول أحد من المشتغلين بالعلوم الحديثة فى الشرق حينذاك ، اللهم الا بضعة أفراد من مجموع الامم الشرقية التى تنطق بالضاد . وحسبنا اليوم أن نرى فكرة النشوء التى قامت من حولها معارك علم البيولوجيا خلال القرن التاسع عشر باجمعه قد أصبحت اليوم من المعارف العامة التى لا يستغنى عن الوقوف على دقائقها عقل مثقف على النمط الحديث فى أنحاء الشرق العربى كله

أعتقد ، وأظن ان اعتقادى فيه كثير من عناصر القوة والحق، ان الدكتور صروف ، رحمه الله ، قد حاز أكبر عقل انسيكلوبيدى ظهر بين الامم الشرقية فى العصر الحديث . عقل انسيكلوبيدى من تلك العقول النادرة التى شهد القرن الثامن عشر أعظم من امتازوا به أمثال ديدرو وفولتير وهولباخ ودالمبير وكوندورسيه ، وامتاز به هربرت سبنسر فى القرن التاسع عشر ، وباكون وديكارت فى حدود العصور الوسطى ، وبلينيوس وغيره فى العصور القديمة .

غير ان لامثال هـذه العقول متجهاً تتجه فيه ، وصبغة تصطبغ بها ، بل ان شئت فقل إن لها وحياً والهاماً يجبرها على ان تتبع خطة لاتحيد عنها وتجد من المتعذر ان تتنكب طريقها المرسوم . فان امتاز عظماء القرن الثامن عشر بصبغتهم الفلسفية ، وان اصطبغ سبنسر بنزعته التركيبية ، أو عرف ديكارت وباكون بخطتهم الاسلوبية ، فان أستاذى الراحل قد امتاز بنزعته العلمية الصرفة التى لم يؤمن بغيرها طوال حياته ، فلم يحارب فى عقله أسلوب من أساليب الفكر الا غلب ، ولا نازلها انفعال من انفعالات النفس على كثرتها الا قهر وكسر .

على أنه كان فى أسلوبه العلمى على نقيض الكثيرين من علماء العصر الحديث . وما نظن الا أنه كان على حق فى ان يناقضهم وأن ينبذ العكوف على طريقتهم كما وضعها فلاسفة القرن الثامن عشر ، أولئك الذين وضعوها لاليؤيدوا بها العلم ولا لينشروا بها المعرفة ، بل لينصروا بها نزعتهم الفلسفية التى ساقت بهم الى الالحاد والى انكار وجود الله .

من مفاخر القرن الثامن عشر أنه حدد الاسلوب العلمى تحديداً دقيقاً . غير ان هـذا التحديد مع الاسف كاد يلغى الطريقة العقلية الصرفة التى يقوم عليها كثير من العلوم الحديثة ، فضلا عن أنها الاساس الذى يقوم عليه صرح العلم فى مجموعة . حددوا الطريقة العلمية بقولهم «كل ما لاتحقق وجوده الحواس لايمكن أن يكون صحيحاً» . هذه مفخرة القرن الثامن عشر . أما مفخرة القرن التاسع عشر فاعتراف العلماء فيه بان من الاشياء التى لاينكر وجودها العقل مالا يمكن اثباته من طريق الحواس ، وأقاموا على ذلك كثيراً من الدلائل العلمية التى لاتنقض . ومن هذه الاشياء الاثير والعقل ووجود العالم المادى الخارج عن حيز الانسان ، والبعد الرابع فى النسبية . وكان أستاذى الراحل من أولئك الذين اتبعوا الطريقة العلمية ولم يلغوا العقل . فدل بذلك على مقدار ما كان فى نزعاته من حب الحرية العلمية ، وما انطوى عليه عقله الكبير من مطاوعات الشك واللاأدرية الفائضة بضروب المرونة الفكرية .

وما يدلك على متجهه الفكرى من شئ مثل كراهيته للنزعات المذهبية فى أيما متجه اتجهت . فلا المذهبية الفلسفية وجدت الى عقله طريقاً ولا المذهبية القومية عرفت الى نفسه سبيلا ولا المذهبية الطائفية أثرت فى وجدانه يوماً ولا المذهبية

الدينية قد اخضعت يقينه برهة واحدة ، بل ولا المذهبية العلمية تركت فى عقله يوماً من الأثر ما يمكن ان يكون حائلا يسد فى وجهه طريق التفكير المستقل القائم على وزن الحقائق ، ثم الحكم فيها حكماً بعيداً عن كل المؤثرات التى تبعث بها فى النفس رسيس المعتقدات وثابت المذاهب .

وبعد . فاذا كان الحزن قد فوت على قبل اليوم أن أكتب فى أستاذى وصديقى الراحل شيئاً ، فانى أنتهز صدور « الرواد » وهو أول أثر للمقتطف بعد وفاة الاستاذ العظيم ، لأن أقدم لروحه الطاهرة تحية تخرج من أعماق قلبى صافية نقية الا من أطهر الذكريات ، التى سوف أحملها فى وجدانى أمانة أؤديها اليه يوم نلتقى فى عالم الارواح .

***

أما « الرواد » فجزء صغير جهد الصغر من ذلك اليم الزاخر الذى خلفه الاستاذ الكبير تحت اسم « المقتطف » . ولئن أردنا اليوم أن نلقى عليه بنظرة وجيزة نلم فيها ببعض أطرافه ، فانما نرجع بك إلى الناحية التاريخية التى تظهرنا على فضل الرواد لا من ناحية استكشافهم لأطراف الارض بل من ناحية تأثير استكشافاتهم فى حرية الفكر وتحرير الضمائر من ضغط الدين فى العصور الوسطى

قامت حركة التجديد فى أوروبا على ثلاثة قواعد : الاولى تحرير علم الفلك : والثانية تحرير علم الجغرافيا . والثالثة تحرير الدين . فكان تحرير الفلك رهن على جهد كوبرنيكوس وغاليليو . وكان تحرير علم الجغرافيا رهن على جهد ماجلان وخريستوف كولمب وغيرهما . وكان تحرير الدين رهن على جهد لوثر وشيعته . ولقد اشعت هذه النواحى الثلاث بأضواء أنارت جوانب الفكر ، فأخذ يتحرر شيئاً فشيئاً من القيود التى قيدته بها الكنائس منذ بداية العصور الوسطى الى أواخر القرن السابع عشر .

ولقد كان للكنيسة آراء وعلوم فى كل فروع المعرفة . غير أن تحرير هذه النواحى الثلاث كان بداءة ذى بدء حركة فى التحرير تناولت كل فروع العلوم من قبل ذلك . ولقد ظلت الفكرة فى الانسان مشايعة لرأى الكنيسة حتى أواسط القرن التاسع عشر حتى أبان داروين بكتابيه الخالدين أصل الانواع وتسلسل الانسان ، ان الانسان أصله حيوانى ، وقضى على الفكرة القديمة القائلة بأن

الانسان أصله سماوى انحط بالخطيئة ، وقرر حقيقة أن الانسان أصله حيوان أخذ يضرب فى مدارج النشوء والارتقاء

واذا أردنا أن نضرب لك مثلا نقرب به فكرة تأثير استكشاف الرواد على العقول وتحرير الافكار فلنضرب لك مثلا بثلاثة معتقدات رسخت فى أذهان الناس فى العصور وكان رسوخها سبباً فى تقييد أفكارهم من ناحية الدين لأنها كانت من العقائد الثابتة التى توحى بها الكنيسة .

الأول : معتقد الانتيبود — وهو الاعتقاد فى وجود أناسى فى الجهة المقابلة للجهة التى نعيش فيها من كرة الأرض . فقد أنكر ذلك القديس اوغسطين معتمداً على نصوص فى التوراة والانجيل وقضى الرواد على هذا المعتقد .

ثانياً : ذلك الفزع المبهم الغامض الذى ألقاه فى روع الناس اعتقادهم باطلا بوجود يأجوج ومأجوج . قال العلامة « وايت » «وقليلا ما تجد فى العهد القديم — التوراة — من مقاطيع تفوق فى عظمتها وروعتها تلك التى أوردها حزقيال فى تعذيب هؤلاء الاعداء الالداء . ناهيك بتلك المقطوعة المعروفة فى سفر رؤيا يوحنا اللاهوتى فانها قد ربطت بين الشعور العبرانى تلقاء يأجوج ومأجوج ، وبين تصور جديد ثبتت أصوله فى صميم الكنيسة النصرانية الاولى » . ولقد قضى الرواد على هذا المعتقد أيضاً لما استكشفوا أقطار الارض ولم يجدوا ليأجوج ومأجوج أثراً .

ثالثاً : الرياح الاربعة — وهو معتقد مستمد مما ذكر فى الاسفار المقدسة . ولقد قام هذا التصور كما ذكر « وايت » على اعتقاد ثابت فى حقيقة وجود هذه الرياح ، فظهرت رموزها على الخرائط الجغرافية فى صورة أدمغة عظيمة الحجم ، منتفخة الوجنات ، ترسل رياحاً زعازع فى اتجاه أورشليم . وكان هذا المعتقد مما قضى عليه الرواد اذا استطاع بعدهم الجغرافيون أن يخططوا كرة الارض على حقائق ثابتة .

واذا أردنا أن نمضى فى ذكر الفوائد التى جناها العلم بالاستكشاف الجغرافى لما وسعنا صدر هذه المجلة . ولكن يكفينا أن نذكر أن أثر الرواد فى العلم والحضارة لا يقل عما خلف عظماء الفلاسفة وكبار المصلحين من آثار . فاذا كانت المقتطف تزود العربية اليوم بكنز تبعثه من كنوزها الكثيرة التى خلفها منشؤها العظيم ، فانها

انما تستخلص من الذهب بعض تبره ، لتستطيع أن توزع الكنز على الناس أقساطا على قدر المستطاع .

هذا ولا يجدر بى أن تمر هذه الفرصة دون أن أهنىء صديقى الاستاذ فؤاد صروف الذى أورثه الاستاذ الكبير حملا ثقيلا اعتقد أنه خير من يضطلع به ، والذى أعرف ان «الرواد» لم يبرز فى هذه الحلة القشيبة الا بجهده وصائب نظره ، وأختم هذه العجالة مملوء أملا فى أن تبلغ « المقتطف » أوجها الاعلى بحسن جهاده وواسع اطلاعه على مر الاعوام والسنين

اسماعيل مظهر

***

الجداول — ديوان ابو ماضى

الأول ١١٢ صحيفة ١٩٢٦ والثانى فى ١٩٢ صحيفة سنة ١٩١٩ طبع مرآة الغرب نيويورك

لئن شعرنا بحاجتنا الى التجديد فى شىء ، فان شعورنا بالتجديد فى الشعر وحاجتنا الى تغيير اساليبه العتيقة ، لينزل من مشاعرنا ابعد فى اغوارها . ولقد حاول الشاعر الأديب إيليا ابو ماضى أنه يجدد فى اساليب الشعر العربى وأن يسمو بمعانيه الى طباق لم يسم اليها الشعر فى العصور الأولى فنجح فى محاولته الى حد بعيد . ولا شك عندنا مطلقاً فى ان ديوانيه جديران بأن يكب الشباب على درسهما والاستمتاع بما فيهما آثار الفكر والفن . وليس لنا ان نترسل الآن فى الشرح والبيان فانه شعر الاستاذ إيليا لايحتاج الى من يزكيه فلننقل منه شيئاً فهو بذاته جدير بأنه يصل الى القلوب والافكار من غير احتياج الى توطئة .

جاء فى قصيدة له تحت عنوان الطلاسم — وهو يتكلم عن الدير

قيل لى فى الدير قوم أدركوا سر الحياة
غير انى لم أجد غير عقول آسنات
وقلوب بليت فيها المنى فهى رفات
ما انا أعمى فهل غير أعمى ؟ . . . . لست ادرى
وقيل : أدرى الناس بالاسرار سكان الصوامع
قلت : ان صح الذى قالوا فان السر شائع

عجباً كيف ترى الشمس عيون فى براقع
والتى لم تتبرقع لا ترها ؟ . . . . لست ادرى

ويكفيك ان تقرأ لى فى هذه القصيدة عينها نجواه للقبور إذ يقول :

ولقد قلت لنفسى وانا بين المقابر
هل رأيت الامن والراحة الا فى الحفائر
فاشارت فاذا للدود عبث فى المحاجر
ثم قالت : ايها السائل انى . . . . لست ادرى
انظرى كيف تساوى الكل فى هذا المكان
وتلاشى فى بقايا العبد رب الصولجان
والتقى العاشق والقالى فما يفترقان
افهذا منتهى العدل ؟ فقالت . . . . لست ادرى
ان يك الموت قصاصا ، اى ذنب للطهاره
واذا كان ثوابا ، اى فضل للدعاره
واذا كان وما فيه جزاء او خساره
فلم الاسماء : إثم وصلاح ؟ . . . . لست ادرى
ايها القبر تكلم ، واخبرينى يارمام
هل طوى احلامك الموت وهل مات الغرام
من هو المائت من عام ومن مليون عام
أيصير الوقت فى الارماس محواً ؟ . . . . لست ادرى
ان يك الموت رقاداً بعده صحو طويل
فلماذا ليس يبقى صحونا هذا الجميل ؟
ولماذا المرء لايدرى متى وقت الرحيل ؟
ومتى ينكشف الستر فيدرى ؟ . . . . لست ادرى
ان يك الموت هجوعا يملأ النفس سلاما
وانعتاقا لا اعتقالا وابتداء لا ختاما
فلماذا اعشق النوم ولم اهوى الحماما
ولماذا تجزع الارواح منه ؟ . . . . لست ادرى

أوراء القبر بعد الموت بعث ونشور
فحياة فخلود أم فناء فدثور
أكلام الناس صدق ام كلام الناس زور
اصحيح ان بعض الناس يدرى ؟ . . . . لست ادرى
ياصديقى أتعللنى بتمزيق الستور
بعدما اقضى ، فعقلى لايبالى بالقشور
اذ اكن فى حالة الادراك لا ادرى مصيرى
كيف ادرى بعد ما افقد رشدى ؟ . . . . لست ادرى

* * *

ومن أفصح ما تقرأ له قصيدته فى « السماء » وإليك بعض أجزائها فانها تفيض بالعاطفة والفكر معاً . قال :

لا تسلنى عن السماء فما عندى الا النعوت والاسماء
هى شىء ، وبعض شىء ، وحيناً كل شىء ، وعند قوم هباء
فسماء الراعى كما يتمناها مروج فسيحة خضراء
تلبس التبر مئزراً ووشاحاً كلما أشرقت وغابت ذكاء
أبداً فى نضارة ، لايجف العشب فيها ولا يغيض الماء
وهى عند الأم التى اخترم الموت بنيها ، وضل عنها العزاء
موضع لاينالهم فيه ضيم لا ولا يدرك الشباب الفناء
وكذا يولد الرجاء من اليأس اذا مات فى القلوب الرجاء
وهى عند الفقير أرض وراء الدار أفق فيها مايشتهى الفقراء
لايخاف المثرى ولا كلبه الضارى ولا لامرئ به استهزاء
وهى عند المظلوم أرض كهذى الا أرض لكن قد شاع فيها الاخاء
يجمع العدل أهلها فى نظام مثلما يجمع الخيوط الرداء
لا ضعيف مستعبد ، لاقوى مستبد بل كلهم أكفاء
كل شىء للكل ملك حلال كل شىء فيها كما الكل شاؤوا
وهى عند الخليع أرض تمبس الحور فيها وتدفق الصهباء

كل ما النفس تشتهيه مباح لا صدود ، لا جفوة ، لا اباء
أكبر الاثم قولة المرء هذا أمر اثم ، وهذه فحشاء
ليس بين الصلاح والشر حد كالذى شاء وضعه الانبياء
واذا لم يكن عفاف وفسق لم تكن حشمة ولا استحياء

* * *

كل قلب له السماء الذى يهوى وان شئت كل قلب سماء
صور فى نفوسنا كائنات ترتديها الافعال والاشياء
رب شيء كالجوهر الفرد فذ عددته الأعراض والاهواء
كل ما تقصر المدارك عنه كائن مثلما الظنون تشاء

وأنت أينما قلبت صفحات الديوانين لاتقع الا على أمثال هذا الشعر الفنى الفائض بصور الفكر الواضح الجلى ، والذى قد يعيب عليه البعض بعده عن الديباجة العربية الصحيحة . على أن للاستاذ أبى ماضى قصائد فيها من الديباجة العربية قدر قد لايصل إليه كثير فحول الشعراء .

غير ان لنا بجانب الكلام فى الجداول والديوان كلمة لم نر بداً من ان نقولها فى هذا الموطن . فان كثيراً من أدباء المهجر قد مضووا يعيثون فى اللغة العربية فساداً ويكيلون لها من التراكيب الافرنجية البحتة بالمد والصاع حتى لقد غلبت على أكثرهم عجمة لانستطيع ان نعرف كيف تتسع لها صدر العربية التى تحددت أساليبها تحديداً محبوك الاطراف على الرغم مما يدعى بعض الكتاب من ان العربية قد اختلفت أساليبها وتغايرت عن أيامها الاولى . فنحن فيما نكتب فى هذا العصر الذى يخيل الينا أنه عصر انتاج علمى وعقلى انما نحتذى أساليب القدماء طوعاً أو كرهاً . فاذا غلبت على بعض الكتاب عجمة خيل الينا أنها تجديد فى الاساليب وما هى لدى الواقع الا العجز عن انتجاع الاساليب القديمة التى بلغ منها أدباء العصور الاولى غاية مبالغها .

ولقد حدس بعض أدباء المهجر ان الترسل فى الخيال قد يجيز لهم ان يرصوا الالفاظ العربية أحداها بجانب الأخرى ليكون لهم من هذا الرص أو بالاحرى الرصف ، أسلوباً عربياً مختاراً . ومن غريب الامر ان هذا الاسلوب بعينه قد انتقل الى سوريا وكتب به بعض من يدعون الأدب وما هم لدى الواقع الا

العجزة ، ومسوخ الادب فى هذا العصر . على ان هـذا الاسلوب لم يقتصر أثره السيء على اللغة بل تناول الاخلاق . فلقد خيل الى بعض البلهاء أنه رصف الالفاظ فى سطور لاتؤدى معنى ولا تنتهى الى خاطر يمكن تحديده بالفهم الجيد هو كل مافى الفلسفة من أسرار الحياة والكون . فخرجت كتبهم صورة مكبرة لما فى نفوسهم من غرور ودعوى وصدرت بالكتب صورهم التى تدل ملامحها على ماملأ نفوسهم من نزق وافراط فى الاعتداد بالنفس . وهذا فى نظرى أكبر ماينشأ عن هـذا الاسلوب من المضار . ولست أدرى ماذا كان يضيرهم لو أنهم نسجوا على منوال الاستاذ أبى ماضى حيث يقول :

لعمرك ماحزنى لمال فقدته ... ولا خان عهدى فى الحياة حبيب
ولكننى أبكى واندب زهرة ... جناها ولوع بالزهور لعوب
رآها يحل الفجر عقد حفونها ... ويلقى عليها تبره فيذوب
وينفض عن أعطافها النور لؤلؤاً ... من الطل ماضمت عليه جيوب
فعالجها حتى استوت فى يمينه ... وعاد الى مغناه وهو طروب

ماضرهم لو أنهم نسجوا على هذا المنوال ؟ ولكنه العجز والعجمة يظنون ان اللجوء اليها والى مايسمونه التخيل وما هو الا الانحراف العقلى التام ، فلسفة الحيـاة . وما هى الا فلسفة الافلات من القيود الادبية نبغ هؤلاء فيها نبوغاً هو الموت الأدبى بعينه .

فهرست

ص		
٣٠١	بشار بن برد	اسماعيل مظهر
٣١٠	رينيه ديكارت	حسين تقى اصفهانى
٣١٨	لماذا أنا ملحد — عن برتراند رسل	حسين محمود
٣٢٧	تغاير العادات وتأثيرها فى الانواع	
٣٣٥	اليهودية	عمر عنايت
٣٤١	العلم والآراء الحديثة	كامل البهنساوى
٣٤١	الحق	عبد اللطيف ثابت
٣٨٤	فى الثورة الفرنسوية يومى ٥ و٦ اكتوبر سنة ١٧٨٩	مؤرخ
٣٦٣	الانتحار كمؤثر اجتماعى — عن شترتون هيل	
٣٧٢	الزولوجيا أو مبادئ علم الحيوان	
٣٧٨	النقد والتأليف	
٣٧٨	تاريخ اليهود فى بلاد العرب	عمر عنايت
٣٨٠	حول عصر المأمون	اسماعيل مظهر
٣٨٩	الرواد — ذكرى أستاذى الراحل الدكتور يعقوب صروف	
٣٩٥	الجداول ديوان أبو ماضى	